اُبُوفِيں کھو دمجمت رشاکر

# قضينالش كالمالان المالان المال

وَمَاسَرَ فِي أَنْنَى فِي الْحِياة وإنْ بَانَ لِي شُرِفٌ وانتشر

النايشر

وارالمسدق بحيدة شسادع الصتحافة عن مشرفة تليفون – فاكس: ٦٧١٣٤٢٤

مطبعة المسكدفي المؤسسة الشعودية بعمسسر 14 شارع العباسية -القامرة .ت ، ( ١٨٧٨ م

## بسما سلالرحم الرحيم

اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت. اللهم صل على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى أبويه إبراهيم وإسماعيل، وعلى سائر النبيين اللهم ارض عن صحابته والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

دعت جامعة (الإمام محمد بن سعود) العلامة الجليل محمود محمد شاكر ليحاضر طلابها، فألقى هذه المحاضرة الممتعة عن الشعر الجاهلى، وكان ذلك فى عام ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م، وقد تولت مجلة العرب نشر هذه المحاضرة فى العام نفسه، ثم لم يقدَّر لها أن تنشر بعد ذلك التاريخ، فكان حقا علينا أن ننشرها مرة أخرى.

وقد سُميت هذه المحاضرة بـ (قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام). وهي على صغرها شديدة الأهمية في كشف الوجوه الملثمة التي أحاطت برسالة كتاب ابن سلام (طبقات فحول الشعراء)، والتي أثارت ثلاث قضايا هي:

القضية الأولى: قضية عمر الشعر الجاهلي الذي وقع إلينا، وهي قضية متفرعة عن أولية الشعر نفسه في لسان العرب.

والقضية الثانية: قضية شعراء الجاهلية المعروفين، وما انتهى إلينا من أشعارهم، ومقدار هذا الشعر.

والقضية الثالثة: قضية وضع الشعر ونحله شعراء الجاهلية، أهى صحيحة أم باطلة؟ فإن صحت فأين المنحول في ما وصلنا عن العلماء الرواة من أشعارهم؟

\* \* \*

وقد قادت رسالة ابن سلام إلى كثير من الشك في صحة الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا، وذلك لأنها لم تفهم على وجهها الصحيح، ولم تقرأ كما ينبغي. لذا فقد كانت هذه المحاضرة مزيلة للإبـــــهام الذي اكتنف رسالة

ابن سلام، كاشفة عن كثير من الغموض الذى أحاط بالشعر الجاهلي وروايته. اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا. والله المستعان على كل أمر، وغفرانك اللهم.

مصر الجديدة

۳ شارع الشيخ حسين المرصفي السبت: ۱۰ من المحرم ۱۶۱۸هـ ۱۷ من مـايو ۱۹۹۷م

فحمود شاكر

## بسسالتداليهم بالرحيم

الحمد لله مالك الملك لا شريك له. هو الواحد القهار. وأشهد أن لا إلله إلّا الله ، وأن محمدًّا عبده ورسولهُ وصفوته من خلقه ، أنزل عليه القرآن العظيم كلام الله ليقرأه على الناس على مُكْثِ ، فأدّى الأمانة ، وبلغنا رسالة ربّه ، على تسليمًا كثيرًا . وصلى الله على أبوينا إبراهيم وإسمعيل وعلى سائر الأنبياء صلاة طيبة .

#### وبعدُ :

كَانَ مَفْرُوضًا ، أو هكذا سوّلت لي نفسي ، أن أرتجل كلمة أجعلها مدخلًا إلى ما سوف أحدثكُمْ عنه، ولكن لما دنا موعد هذا اللقاء خفتُ وجزعتُ، فآثرتُ أن لا أورِّط نفسي في أسبوع واحد مرتين، وحسبي ما ورّطني فيه أخي وصديقي أبو فهد، الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، منذ أيام قلائل كما يعلم بعضكم، غفر الله لى وله. فأنا أجد حَرَجًا شديد الشراسة قابضًا على أكظامي ، يأخذني أخذًا عنيفًا إذا ما قُدِّر عليّ أن أقف في جمع من الناس مرتجلًا للكلام. فهذه ليست صناعتي ، لم آلفها ولم أمارسها قطُّ ، صناعتي هي حملُ القلم بين أنامِلِي في خلوة بعيدًا عن الناس، في كَنَف السكينة والاطمئنان، حيث لا يشغلني عما أريده حوفٌ ولا تردّد، ولا عينٌ تحملقُ في وجهي ، ولا أذنَّ تُصْغِي تنازعُني لساني ، وحيث لا يبلبلني صَوْت نفسي وأنا أسمعُ كلامًا قد فَصَم عنّى ، ثم لا أملك ردَّه أو تغييره إن أخطأت أو مُجرَّت أو تهاويتُ في زَلَل، فإنّ هذه البلبلة بين البسط والقبض، حليقةٌ أن تتركني كالمخنوق لا يجدُّ مساغًا للتنفس. نعم، فأنا لا أجدُ حريتي إلَّا مع القلم، فهو وحده الذي يستطيع أن يتحدّث عن نفسي مبينًا عنها ، غير متردّد ولا خائف ولا متهَيِّب ولا متلجلج. ألفتُ هذه الحرية وأحببتُها، حتى بطل عملُ لساني ً وشَفَتَى أو كاد، وصار القلم وحده هو لساني الذي أتحدث به إلى جموع الناس. هذا عذرى ، فإن قبلتموه فهى مئةٌ لكم على ، وإن كرهتموه فلم تقبلوه ، فأنا على كُلِّ حالٍ لا أستطيع أن أفارق محرِّيتى ، لأَقع فى أسر من لا يرحمنى . ولستم به إن شاء الله .

وأظنُّ أنَّ أكثركم قرأ أو سَمِع أنى سألقى سلسلة محاضرات. تحمل أسلوبًا جديدًا في الدراسات الأدبية كما جاء في إعلان الجامعة، وهذا تعبير مألوف متعارفٌ عليه في جميع الجامعات، ولكني كعادتي، أخافُ الأوهامَ التي تنشئها مفردات اللغة في أذهان القارئين والسامعين، فرأيته واجبًا عليَّ أن أزيل وهمًا كبيرًا تحملُه هذه الكلمات. فأنا بلا شكُّ عندي، لستُ محاضرًا، لأني لم أعالج المحاضرة قطُّ في حياتي، بل يحسنُ أن أقول لكم: إنى لم أستمع إلى محاضرات إلَّا في صدر حياتي ، حين كنتُ طالبًا في الجامعة ، وحين كنت شابًا صغيرًا أتابع بعض ما كان في المحاضرات في زماني الأوِّل البعيد، ثم بَدَا لي، وأنا في شُرْخ الشباب، أن أعتزل الحياة العامة بعض الاعتزال، فلم أسمع في خلال هذه العزلة سوى محاضرات قليلة جدًا ، كنت أسمعُها أحيانًا غارقًا في الدهشة من قدرة المحاضر المرتجل على التدّفق في حديثه، كأنه يقرأ من كتاب. كيف يتمُّ له هذا؟ لا أدرى. وكنت أتمنَّى بيني وبين نفسي أن أكون كمثله، ولكن العجز كان يقف دائمًا حائلًا بيني وبين ما أتمنَّي. كنت أقول لنفسي أحيانًا: هذا المحاضر بلا شكِّ، قد أُوتِيَ قدرًا كبيرًا جدًا من شيء حُرمتُه، وهو شجاعةُ النظرة، وإلَّا فكيف يلقى هذا الجمع الكبير من الناس وعيناه في عيونهم ؟ مئات العيون تنظر في عينيه ، كيف يتلقَّى هذه السهام النوافذ بلا رهبةٍ ؟ مثات العيون تحيطُ به وتَجُسُهُ وتقلُّبهُ وتَرُوزهُ ، تأخذه وترفعه وتضعهُ ، وتنشُرُه وتطويه ، وتتداوله بالمسِّ الرفيق والمسِّ الخشن ، كأنه ثوبٌ عند بَرَّاز تقلُّبُه أيدى المشترين. كيف يطيق هذا؟ كيف يصبر له؟ لا أدرى. وأنا الآن بينكم قد وقعتُ في مثل هذه التجربة المخوفة، ولا أدرى كيف أجد عواقبها في نفسى ، بعد أن أنزل عن هذا المنبر ، ثم أفارقكم إلى الفندق ، ثم أَخْلُو بعد ذلك في غرفتي أتأمَّل ما كان منَّى ومنكم كيف كانَ . تجربةٌ جديدةٌ ، أرجُو أن أجدَ لها لذَّةَ كُلِّ جديدٍ، إن صدق الحطيئة في قوله:

لكُلِّ جديدٍ لَذَّةً، غيرَ أَنَّنِي وَجَدتُ جديد الموت غير لذيذ

وقد صدق في الثانية بلا ريب، فهل هو صادق في الأولى حيث جعلها عامةً مستغرقة لكُلِّ شيء؟ لا أدرى الآن. والله أستعين على ما كُتِبَ على، وأسأله اللطف في قضائه وقدره. بيد أنّ الأساتذة الكبار من المحاضرين المتمكنين، قادرون على معونتي، وعلى التخفيف عني، بإرشادى إلى حقيقة هذه التجربة، وهم الآن جلوس معنا يسمعون ما أقول، فَعَسى أن يتكرَّموا على متطفّل وابن سبيل، يسألهم ما لا يرزأهم شيئا، إلّا أن يأخذوا بيده ليخرجوه من ورطته وحيرته ومخاوفه، وهذا قليل من كثير فَضْلهم على كُلِّ طالبٍ علم مسترشد.

هذا والمحاضر محتاج ، فيما أظن ، إلى قدر كبير جدًّا من التنبُه الخاطف المتتابع ، فإنه يلقى جمعًا كبيرا من الناس تختلف أسماعهم في تلقي ما يسمعون ، ويختلف قدرُ اهتمامهم بما يسمعون ، فينبغى أن يكون قادرًا على إدراك ذلك ، لا بهذه المعرفة وحدها ، بل بدقة ملاحظة وجوه الناس وحركاتهم في مجالسهم ، فيسرع ابتداءً إلى إخراجهم من ممّا ينتابهم من الاعتراض عليه أو الضيق بحديثه ، بمهارة فائقة ، حتى يفرغ من محاضرته وقد أرضَى جميعهم ، وشغلهم عن حديث أنفسهم بحديثه . وليس هذا مكان تفصيل معنى «المحاضرة» وواجب المحاضر ، ولكنى أشير إليه لأعلمكم أنى من كُل هذه المواهب فقير معدم .

وأما «الدراسة الأدبية»، فأنا في الحقيقة غير قادر الآن لضيق الوقت على أن أفضًل لكم رأبي فيها، وفي الاختلاف الذي أراه بين الدراسة الأدبية المحضة التي يتولاها أساتذة الجامعة في دروسهم وكتبهم، وبين شيء آخر لا يقوم إلّا على مقدّمة صحيحة من «الدراسة الأدبية المحضة». ولكنه يخالفها في النتيجة وفي الأسلوب، وهي كتابة الكاتب الذي يتناول نفس ما تتناوله الدراسة الأدبية المحضة، ولكنه يصوغها صياغة كاتب لا صِياغة أستاذ دارس. فأنا في الحقيقة

أوَّلُ الرجلين، لأنَّ صناعتى هي الكتابة لا غير، ولأنَّى لا أحبُ أنْ أكون مرةً أخرَى متطفِّلًا على الأساتذة الدارسين، مقحمًا نفسى بينهم. ومع ذلك، فأنا أرجو أن أوضح لكم الأمر بعض التوضيح، فأنا حين أتناول ما يتناوله الأستاذ الجامعي الدارس، أبدأ القراءة دارسًا متفرّغًا للدرس على «منهج» بينته منذ إحدى عشرة سنة في بعض ما كتبت، حيث قلت:

«لفظ: المنهج، يحتاج منى هنا إلى بعض الإبانة، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون في مثل هذا الشأن، بل أريد «ما قبل المنهج»، أي الأساس الذي لا يقوم المنهج إلا عليه. فهذا الذي سميته هنا «منهجًا» ينقسمُ إلى شطرين: شطر في تناول المادة، وشطر في معالجة التطبيق.

«فشطر المادة يتطلّبُ قبل كُلِّ شيء، جمعَها مِنْ مظانها على وجه الاستيعاب المتيسّر، ثم تصنيف هذا المجموع، ثم تمحيص مفرداته تمحيصا دقيقًا، وذلك بتحليل أجزائها بدقة متناهية، وبمهارة وحِذقٍ، حتى يتيسّر للدَّارس أن يرى ما هو زيفٌ جلياٌ واضحًا، وما هو صحيح مستبينًا ظاهرًا، بلا غفلة وبلا هوى وبلا تسرّع».

(أما شطر التطبيق ، فيقتضى إعادة تركيب المادة بعد نفى زيفها وتمحيص جيدها ، باستيعاب أيضًا لكُلِّ احتمال للخطأ أو الهوى أو التسرُّع .ثم على الدارس أن يتحرَّى لكُلِّ حقيقة من الحقائق موضعًا هو حقُّ موضعها ، لأن أخفى إساءة في وضع إحدى الحقائق في غير موضعها ، خليقٌ أن يُشَوِّه عمود الصورة تشويهًا بالغ القبح والشناعة » (١).

هذا ما قلت قديمًا ، وأنا بلا شك ملتزم به في القراءة قبل الكتابة ، ولكن الفرق بين ما أكتبه بَعْدئذ ، وبين ما يكتبه الأستاذ الدارس ، هو أنه بأستاذيته يلزم نفسه بإثبات كُلِّ ما وقف عليه مردودًا إلى مرجعه = أما أنا فعبْد لصناعتي . وهي الكتابة ، أتخيَّرُ من مادة الدراسة الصحيحة ما أريدُ ، وأفرِّق ما كان حقّه

<sup>(</sup>١) انظر تفصيل الكلام على ذلك في ( رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ) ص ٢٢ وما بعدها .

عند الدارس أن يجتمع ، وأتنقَّل مع الخواطر من معنى إلى معنى ، ولا أكاد أردِّ إلى المراجع إلّا ما لابُدَّ من ردّه ، وأقف على أشياء يتجاوزها الدارس فأطيل الوقوف ، وفروق أخرى كثيرة جدًا ، أخشى أن أتمادى بها وتتمادى بى ، حتّى أضيع وقتى ووقتكُمْ ، ولكنها على كل حالٍ ظاهرةٌ فيما كتبت قديمًا وحديثًا ، ولكنه أكثر أصحابنا قد غفل عنها .

وإذنْ ، فينبغى أن أبرىء ذِمّتى فأقول لكم: إنى لست محاضرا ، ولست أستاذًا جامعيًا دارسًا ، ولكنى حين تورطت في هذا الأمر أصررت على أن أبقى كاتبًا ، محاولًا بعض المحاولة أن أتشبّه بالمحاضرين فيما أكتب على جهل منى بالمحاضرة ، ومحاولًا أيضًا أن أتشبّه بالأساتذة الدارسين ، مع أتى مشارك لهم في الأصل ، وهو الدراسة التي أمارسها بصرامةٍ كما يمارسونها ، ولذلك فسيبقى ما تسمعونه منى كتابةً أوّلًا ، ثم محاضرةً على إشفاق من الإخفاق في التجربة ، ثم دراسة أدبية مقاربة ، أخشى أن يتلقاها الأساتذة الكبارُ الحاضرون اليوم معنا ، على مضض بشيء من الامتعاض ، ولكنى أرجو أن لا يجدوا ذلك في أنفسهم لأني أشاركهم مشاركة تامة في أصول الدراسة ، وفي الالتزام بمنهج ارتضيته ، لا يضرُهم أن يخالف مناهجهم بعض المخالفة . ومع ذلك ، فكان ينبغي أن لا أشك في قدرتهم على التغاضي عن هذه المخالفة التي ارتكبتها ، لأنهم أرحبُ الناس صدورًا ، وأعظمهم تسامحًا ، وقد غمروني جميعًا بمودة لا أنساها ، وبمحشن لقاء وتفقيً ، لا يدعُ أحدهما للشك في النفس موضعًا .

حين دعيتُ إلى هذه الجامعة ، بدا لى أنْ أجعل أحاديثي عن شعر الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، فلما مضيتُ فى دراسة شعره ، تبيّن لى أن أبدأ بحديث عن الشعر الجاهليّ ، لأن رأبي فيه لا ينفصل البَتّة عن رأبي في شعر الأعشى ....

أجدهُ أمرًا لائبدً منه أن أتحدث حديثًا موجزًا عن الشعر الجاهليّ عامةً ، قبل أن أبدأ حديثي عن شعر الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، وشعره الذي وصل إلينا في ديوانِ مجموع ، هو من رواية أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، مولى

بنى شيبان، وهو الإمام الذى انتهت إليه إمامة أهل الكوفة، ولد سنة مئتين، وتوفّى ببغداد ليلة السبت لعشر خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين ومئتين.

وبعض هذا الحديث عن الشعر الجاهلي لابُدَّ منه ، لأنه لا ينفصل البتة عن رأيي في شعر الأعشى ، وفيما وصل إلينا منه ، ولا عن رأيي فيما قالَهُ بعض علمائنا الأقدمين في بعض قصائده التي انتهت إلينا أنها مصنوعة ، ولا عن رأيي فيما ادّعاه بعضُ الحُدَثين من الحكم على كثير من شعره ، أو على أكثر شعره ، أنّه موضوعٌ منحولٌ .

وعندى أنّ أكبر القضايا التي يُثيرها أمر «الشعر الجاهلي» ثلاث قضايا: القضيّة الأولى: قضيّةُ عُمْر الشعر الجاهليّ الذي وقع إلينا، وهي قضيّةٌ متفرّعةٌ عن أوّليّة الشعر نفسه في لسان العرب.

والقضية الثانية: قضية شعراء الجاهلية المعروفين، وما انتهى إلينا من أشعارهم، ومقدار هذا الشعر.

والقضية الثالثة: قضية وضع الشعر ونحلِه شعراءَ الجاهلية، أهى صحيحة أم باطلة؟ فإن صحّت، فأين هذا المنحولُ فيما وصلنا عن العلماء الرُّواة من أشعارهم؟

وهذه القضايا الثلاث متداخلة متشابكة ، ومن صواب الرأى أن يحاول المرء أن يوضّح مواضع الفصل بين كُلِّ قضية وقضية . لأن هذا الفصل بين متداخلاتها خليق أن يضىء الطريق للباحث ، ويعينه على تصوّر قضية الشعر الجاهلي كُلِّه تصوُّرا صحيحًا أوْ قريبًا من الصحيح ، وسأحاول أنْ أفعل ذلك ، مستعينًا بالله ، وباذلًا غاية جُهدى اليوم ، بعد زمانٍ طويل مَضَى على مِحْنتى محنة شديدة قاسية بأمر الشعر الجاهليّ في أوّل عُمْرِي ، وما وقعتُ يومئذ فيه من الاضطراب حتى استقر قرارى على صحّة ما انتهيتُ إليه من الثقة بصحة هذا الشعر ثقة لا تتزعزع ، فرميتُ كُلَّ ما كان يومئذٍ دَبْر أذنى ، وانطلقتُ أدرُسُ الشعر نفسه ، وبلذة أجدها في دراسته . غير مبال بكُلّ ما كان من

اضطرابي حتى انتهيت إلى الاستقرار والاطمئنان إلى صحة هذا الشعر. فالآن بعد هذا الزمان المتباعد. أُحاول أن ألمَّ شعثَ ما انتشر وضاعَ ونُسِيَ من أسباب ثقتى بهذا الشعر.

\* \* \*

أمّا القضية الأولى، وهي قضية عمر الشعر الجاهليِّ وأوَّليته، فإني رأيتُ أكثر الباحثين يؤُولُون في الحديث عنها إلى قول أبي عثمان الجاحظ، (المولود سنة ١٥٠، والمتوفى سنة ٢٥٥ هـ)، لأنه من أقدم ما قيل في هذه القضية، ولثقة الناس بعقل الجاحظ ونظره. فلذلك أرى أن أَثبت هنا مقالته كُلَّها التي تتعلَّقُ بالشعر، في خلال ما أفاض فيه من ذكر فضل الكتابة والكِتَاب، وهذا نص ما قاله في كتاب الحيوان (٧١/١١)

«...فكلُّ أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكلٍ من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها... وذهبت العجمُ على أن تقيِّدَ مآثرها بالبنيان... بَنى أردشير بَيضاء إصطخر، وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس. ثم إن العرب أحبّت أن تشارك العجم في البناء، وتنفرد بالشّعر، فبنوا غُمدان، وكعبة نجران، وقصر مارد، وقصر مأرب، وقصر شَعُوب، والأبلق الفردَ». ثم انتهى أبو عثمان إلى أن قال: «وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد صغيرُ السنّ، أوّلُ من نهجَ سبيلَهُ وسهَّل الطريق إليه: امرؤ القيس بن محجر، ومهلهل بن ربيعة. وكُتُبُ أرسطاطاليس، ومعلِّمِه أفلاطون، ثم بطليموس، وديمقريطس وفلانِ وفلانِ قبل بدءِ الشعر بالدهور قبل الدهور، والأحقاب قبل الأحقاب. ويدلُّ على حداثة الشعر قولُ امرىء القيس بن محجر:

إِنَّ بني عوفِ ابْتَنَوْا حَسَبًا ضَيَّعه الدُّخْلُلُونَ إِذْ غَدَرُوا أُدَّوْا إِلَى جَارِهِم خُفَارَتَهُ ولم يَضِعْ بالمغيبِ من نَصَروا

لم يفعلُوا فِعْلَ آل حنظَلَةٍ لا حِمْيَرِيٌّ وفَى ولا عُدُسٌ لكن عُـوَيرٌ وَفَـى بـذمّـتِـه

إِنَّهُمْ، جَيْرِ، بئس ما ائتمروا ولا اسْتُ عَيْرِ يَحُكُّها التَّفَرُ لا قِـصَـرٌ عـابَـهُ ولا عَـورُ

فانظركم مُحمَّر زرارة؟ وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي عَيَّتُهُ؟ فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام حمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتى عام»، وانتهت مقالة أبي عثمان.

وهذه الأبيات التي استدلّ بها أبو عثمان ، يقولها امرؤ القيس في شأن مقتل أبيه محجّر، لما قتلته بنو أسد، فانحازت ابنته هند هي وقطينهًا إلى عُوير بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم ، فأجارها وفرَّ بها ورمى بها النّجادَ حتى أطلعهَا نجران وقال لها: «إنَّى لا أغنى عنْكِ شيئًا وراءَ هذا الموضع، وهؤلاء قومك، وقد برئت خفارتي». وكان امرؤ القيس حين قُتِل أبوه حجر مقيمًا في بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، لأنّ ظِئرهُ كانت امرأةً منهم. وبيِّنٌ من هذا الشعر أنَّه هو وأختَه استجارا ببني حنظلة فلم يجيروهما. استجارا بحميري بن رياح بن يربوع بن حنظلة وعُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة . و« عُدُس » ، هو أبو زرارة بن عُدُس ، ، وزُرارة بن عدس، كان أحد حكام تميم في الجاهلية. وكان قد أسنَّ، وكان موته قبل يوم أوارة الثاني بقليل، وذلك على عهد عمرو بن هند، الذي حَرَّق بني تميم، فقيل له «محرق»، وهو «مضرّط الحجارة»، وهو «عمرو بن المنذر ابن ماء السماء». وكان مولده ﷺ، كما في تاريخ أبي جعفر الطبري ( ٢ : ٩٤) لثماني سنين وثمانية أشهر من ملك عمرو بن هند بالحيرة، وذلك في زمن كسرى أنوشروان، وهو عام الفيل الذي غزا فيه أبو يكسوم الأشرم بيت الله الحرام يريد هدمه.

وظنّى، وهو ظاهرُ الصوابِ إن شاء الله ، أنّ أسلوب الجاحظ فى استظهاره هو هذا: كان موتُ زُرارة بن عُدُس قُبيل مولد رسول الله ﷺ، فهذه نحو من خمس وأربعين سنة إلى أن بعث الله رسوله بالإسلام على رأس أربعين سنة من

مولده . وزرارة بن عدس قد رأس وقاد تميمًا ، (وهو أحدُ الجرارين) ، نحوًا من أربعين سنة أو أكثر إلى أن أسنَّ ومات قبل يوم أوارة الثانى ، فهذه نحو من تسعين سنة . وأبوه «عُدُس بن زيد» قد سادَ من قبله ورأس نحوًا من أربعين سنة . فهذه مئة وعشرون إلى مئة وحمسين سنة ، على الأكثر . فإذا كان امرؤ القيس قد ذكر «عدس بن زيد» في شعره ، فهذا دليل على حداثة الشعر . وليم كان ذلك ؟ لأن أبا عثمان قد زَعَم أنّ «أوّل من نهج سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه» هو امرؤ القيس الكندى وخاله مهلهل بن ربيعة التغلبيّ ، وما دام هذا صحيحًا عند أبي عثمان ، فإنه يستظهر بغاية الاستظهار ، هكذا يقول ، فيضيف خمسين سنة أخرى لما عَسَى أنْ يكون صحيحًا من قولهم إنّ امرأ القيس كانَ يتّكئ في بعض شعره على من سبقه كابن حذام الطائي وأبي دؤاد الييادى ، فهذه مئتا عام بغاية الاستظهار . وإذن فالشعر «حديث الميلاد صغير السنّ» . هذا هو أسلوب أبي عثمان في الاستدلال على حداثة «الشعر» عند العرب .

وهذا الأسلوب من النظر في تقدير عمر الشعر العربي، أسلوب حسابي بَحْتٌ. والحساب وحدة لا يكادُ يغني شيئًا في ميلاد الشعر وحداثة سنّه. لم ينظُر أبو عثمان، أو لم يبال أن ينظر، في شعر امرىء القيس نفسه، كيف جاء موزونًا مقفّى على ضروب مختلفة من الأوزان والقوافي معروفة عنده في شعر مهلهل وابن أخته الذي ورث عنه الشعر. ولم يبال أن يأمر نفسه أن تنظر، كما أمرنا أن ننظر في موت زرارة، كيف تسنّى لمهلهل وابن أخته أن يستحدثا هذا القدر في البحور المختلفة الأوزان والقوافي؟ ولا كيف يمكن أن يقع لهما هذا القدر من الابتداع جملةً على غير مثال سابق؟ وأسئلة أخرى كثيرة جدًّا. والذي لا أشك فيه ، لطول معرفتي بأبي عثمان ، هو أنه فرح فرحًا شديدًا غامرًا بأسلوبه الحسابيّ في الاستدلال على ميلاد الشعر، فأغفله الفرح الغامرُ عن مذهبه في النظر والفحص والتساؤل، وتقليب كل قضية على وجه بعد وجه ، معترضًا ، آخذًا تاركًا ، دافعًا مثبتًا حتى يفرُغ. وهو مذهبه الذي برع فيه ، كما معترضًا ، آخذًا تاركًا ، دافعًا مثبتًا حتى يفرُغ. وهو مذهبه الذي برع فيه ، كما

هو معلومٌ مألوفٌ في كتبه ورسائله، وفي احتجاجه لآرائه التي تولّـي نُـصْرتها، وأقواله التي استحدث بها مذهبه في الاعتزال.

وهذا الأسلوب الحسابيّ لا يغنى ولا ينفع إلّا في أمر واحدٍ لا غيرٌ، هو تحديد عُـمْر ما بلغنا من شعر مهلهل وابن أخته امرىء القيس، لا أكثر. وكُلُّ تجاوز لهذا القدر، تهجُّم على غيب بلا دليل هادٍ، وهو أيضًا خطأ فاحشِّ في نَقْله نتيجة الحسابِ من موضع هو به لائق، إلى موضع آخر يباينُه كُلُّ المباينة، وليس ينفع أبا عثمانَ أن يتَّكيَّء في نقله على دعوَى يدّعيها هُوَ لامرىء القيس أو لخاله مهلهل ، زاعمًا أنه أوّل من نهج سبيل الشعر وسهَّل الطريق إليه . وذلك لأن هذه الدعوى في أولية امرىء القيس أو غيره ، هي قبل كُلّ شيء محتاجة في إثباتها إلى دليل مُقْنِع، غير مجرّد الادعاء الذي لا برهان عليه أنّ: «كتب أرسطاطاليس، ومعلَّمه أفلاطون، ثم بطليموس وديمقريطس وفلان وفلان، قبل بدءِ الشعر بالدهور قبل الدهور، والأحقاب قبل الأحقاب،، كما قال، والدعْوي لا تقرَّر بدَعْوَى مثلها تفتقر هي نفسها إلى بُرهانِ يُجَلِّيها ويثبِّتُها. وكلتاهما تحتائج إلى دليل غير الدليل الحسابي المعتمِد على زمن الميلاد وزمن الوفاة . وإذن ، فقول الجاحظ: «إن الشعر حديث الميلاد صغير السن » ، قضيّة باطلةٌ ، لا برهان عليها ، وليس لها دليلٌ ، وهي مقالة لا أصل لَهَا . وليس يبقى في أيدينا من استظهاره الذي استظهرهُ إلا أمرٌ واحدٌ ، هو أن امرأ القيس وخالهُ المهلهل من أقدم شعراء الجاهلية الذين انتهى إلينا شعرهم، فإذا كان ذلك فإن أكثر الذي انتهى إلينا من سائر قديم شعراء الجاهلية ، لا يكادُ يتجاوز عمرهُ مئتى عام. وهذا يوشك أن يكونَ حقًّا لا ريب فيه، ولكن يحشنُ أن نقيِّد هذه القصية بقيد لابُدَّ منه ، احترازًا من التعميم الغامض ، هو أننا نعني القصائد الطوال المقصَّدة ، دون ما نسمّيه المقطّعات ، أو الأبيات ذواتِ العدد التي بلغتنا من قديم شعر الجاهلية.

وقد كنتُ شديد العَجَب من أمر أبي عثمان ، أتعجَّبُ من أينَ أتي بهذه الدَّعوى التي بني عليها استظهاره ، أنّ امرأ القيس هو أوّل من نَهَج سبيلَ الشعر

وسهَّلَ طِيقه ؟ وكان بدا لى قديمًا أنّ أبا عثمان قد أخذ هذا من الحديث الذى رواه الإِمام أحمد بن حنبل فى مسنده (رقم:٧١٢٧)، عن هشيم، حدثنا أبو الجُهيم الواسطى ، عن الزُّهرى ، عن أبى سَلَمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القيس صاحبُ لِوَاءِ الشعراءِ إلى النَّار » .

وهذا الخبر نفسه رواه البخاري في الكني قال: «قال مسدّد، حدثنا هشيم، حدثنا شيخ يكني أبا جهم، عن الزهريّ، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال : «صاحب لواء الشعراء إلى النار ، امرؤ القيس ، لأنَّه أُوِّل من أحْكم الشّعر». وأبو الجهم هذا قال فيه ابن عدى «شيخٌ مجهولٌ ، لا يعرف له اسمٌ ، وخبره منكر، ولا أعرفُ له غيره»، وقد أفاض أخي السيد أحمد محمد شاكر رحمه الله في شرح إسناد هذا الخبر، وذكر إجماع علماء الجرح والتعديل على أن أبا الجهم معروف برواية هذا الخبر، وأنه خبر واهٍ ضعيفٌ جدًّا، وذكر أيضًا ما يدورُ في كتب الأدب من حديث ينسبُ إلى رسول الله ﷺ أنه ذكر امرأ القيس فقال: «ذاك رجُل مذكورٌ في الدنيا شريفٌ فيها. منسيٌّ في الآخرة خاملٌ فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواءُ الشعراء إلى النار » ، ووجد أخي إسناده في تاريخ ابن عساكر عن ابن الكلبي، ورواه الطبراني في الكبير «من طريق مسعد بن فروة بن عفيف عن أبيه عن جدّه » قال: « ولم أجد من ترجم هؤلاء. وهذا إسنادٌ مظلم، لا تقوم به حجة، بل لا تقوم له قائمة. وإنما هي كُلُّها روايات ضعافٌ متهافتة ، يضعّفُ بعضُها بعضًا » . وكنتِ أعذِرُ الجاحظ ، لأنه لا علمَ له بالحديث، وأتعجُّبُ له أَنْ يَزُورً في كتبه عن الأحاديث الصحاح الراسخة في الصحة ، ثم يعتمدَ في هذا الأمر على خبر هالكِ متهافتِ لا تنهضَ به حجة ! وكنت أظنُّ أو أرجِّح أنَّه ترجم ما جاءَ في هَذا الكلام : أن امرأ القيس هو «أوّل من أحكم الشعرَ»، فقال: «هو أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه»، والتشابه بين سياق القولين ظاهرٌ بَيِّنٌ، وهذا جائزٌ جدًّا، لأنَّ أبا عثمان ذكر في كتبه كالبيان والحيوان وغيرهما أحاديث من أحاديث هشيم بن بشير الواسطى الإمام الثقة (١٠٤- ١٨٣)، وروى كثيرا من الأحبار من كتب ابن الكلبى، هشام بن محمد بن السائب ( ٠٠٠ - ٢٠٤)، فهو خليق أن يكون رأى هذين الخبرين، فأخذ منهما ما أخذ، وصاغ هذه القضية وألقاها إلقاءَ الواثق بصحتها، وهي في الحقيقة دَعْوَى لا نسبَ لها إلَّا في ألفاظ خبرين واهين، من رواة مجاهيل كَذَبة مُعْرقين في الكذب.

ازددت على الأيام ثقةً بأنّ مقالة أبي عثمان في « كتاب الحيوان » ، دعوى مشتقة من ألفاظ هذين الخبرين العليلين الهالكين ، مع التباين الشديد في حقيقة المعنى ، لم يَسْبِقُهُ إليها أحدٌ من نقّاد الشعر وحفظته . بيد أنّ وجه الرأى تغيّر عندى فيما بعدُ . أيكون أبو عثمان وحده هو الذي نظر في قضية «الشعر عندى فيما بعدُ . أيكون أبو عثمان وحده هو الذي نظر في قضية «الشعر الجاهلي » وأوّليته وقدرمه ؟ لا ، بل نظر فيها رجُلٌ من معاصريه هو أقومُ منه على الشعر عامةً ، وعلى الشعر الجاهلي خاصةً . وهو أشدُّ تحقُّقًا بدراسته ، وأبلغ نفاذًا وتثبُّتًا في روايته وفَحصِه . لا ، بل من الخطأ أن يُقايَس بينهما ، لاختلاف طريقيهما في النظر والرواية اختلافًا مُبِينًا . وهذا الرجل هو أبو عبد الله محمد ابن سلام الجُمَحيّ ، صاحب كتاب «طبقات فحول الشعراء» ، (المولود سنة ١٣٩، والمتوفى سنة ١٣٥) ، فهو كما ترى معاصرٌ لأبي عثمان الجاحظ (المولود سنة ١٥٠، والمتوفى سنة ١٥٠) . ولولا أنّى شُــــــغلت بكتاب ابن سلام ، وأجمعتُ العزم على شرحه وتحريره ، لكنت خليقًا أن أقف حيث كنت من رأبي في دعوى أبي عثمان ، لا أزيدُ عليه شيئًا يذكر .

ويحسن بي هنا. أن أقصَّ القصة في خلال مراجعتي نصَّ كتاب «طبقات فحول الشعراء»، وتتبُّعي ما نقله العلماء من كتابه إلى تُحبُهم، وجدت الجاحظ قد نقل في مواضع من كتاب «الحيوان» خاصة، عن ابن سلام أقوالاً وأخبارًا هي بنصِّها موجودة في نسختي من «طبقات فحول الشعراء»، فثبت عندي أن الجاحظ قد اطلع على نسخة من كتاب ابن سلام، فنقل منها. والدليل على ذلك أن أبا عثمان، كما ذكر الأستاذ عبد السلام هارون في مقدمة «كتاب الحيوان» ومقدمة «كتاب البيان والتبيين»، قد أقعده الفالج قبيل مقتل ابن الزيات في سنة ٢٣٣، وأنّه ألف الكتابين في آخر حياته. وقد أوشك الدكتور طه الحاجري أن

يقطع بوقت تأليف «كتاب الحيوان» في مقدمة كتاب البخلاء فقال: «أما كتاب البخلاء فقال: «أما كتاب الحيوان فنستطيع القطع في طمأنينة علمية بأنه كتبه في أواخر حياته، بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧». وقد استظهرت أنا أيضًا أنه ألف كتابا ثالثا هو «كتاب البرصان والعرجان» في تلك العلّة، ألفه مع الحيوان، وقبل كتاب البيان، لأنه ذكر فيه الأحنف بن قيس، وذكر شيئًا من أقواله ثم قال ص ٢٠٧: «وسنذكر فقرًا من كلامه في كتاب البيان والتبيان (١)، إن شاء الله، وبالله التوفيق».

وإذا كان «كتاب الحيوان»، الذي ألفه أبو عثمان في آخر حياته، يدلُّ علي أنه اطَّلَع على كتاب ابن سلام ونقلَ منه، فإن كتاب «البرصان والعرجان» يدلُّ دلالة قاطعةً أخرى على ذلك. فإن أبا عثمان، بعد أن فرغ من ذكر البرصان، واستفتح القول في العرجان ص: ١١٠، قال في تقدمة الباب: «وسنذكر شأن العرجان وأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأقدارهم بمثل ذلك من الأشعار الصحيحة والأسانيد المرضية»، وقد وفي بما قال في شأن من ذكرهُمْ إلا رجلًا واحدًا لم يذكر عنه خبرًا ولا صفةً ولا بيانًا من بين جميع من عدّدهم وحلًاهم من العرجان، من ص ١١٠، إلى ص ٢٧٠، بل أسقطه إسقاطًا في خلال العرجان وأخبارهم، فقال في ص: ١٢٨ «ومن العرجان: أبان بن عثمان البجليّ الأعرج، وكان صاحب أخبار، وقد أكثر عنه محمد بن سلام الجُمَحِي»، ولم يزد على ذلك شيئًا من خبر أو غيره. والذي ذكرهُ من إكثار محمد بن سلام عنه في الرواية بيّنٌ في عرجانه، لأنّ ابن سلام وصفه بالأعرج في موضعين من كتاب الطبقات (ص: كتاب الطبقات (ض: عرجانه، لأنّ ابن سلام وصفه بالأعرج في موضعين من كتاب الطبقات (ص: العرجان يشغله، فأخذه وضمّه، ولكنّه نسى أن يضيف إلى نسبته «البجلي» العرجان يشغله، فأخذه وضمّه، ولكنّه نسى أن يضيف إلى نسبته «البجلي» العرجان يشغله، فأخذه وضمّه، ولكنّه نسى أن يضيف إلى نسبته «البجلي» العرجان يشغله، فأخذه وضمّه، ولكنّه نسى أن يضيف إلى نسبته «البجلي» العرجان يشغله، فأخذه وضمّه، ولكنّه نسى أن يضيف إلى نسبته «البجلي»

<sup>(</sup>١) هكذا جاء في كتاب البرصان والعرجان ص ٣٢٩، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، وقال في حاشيته «هذه التسمية لم أجدها في غير هذا الموضوع، والمعروف: التبيين، و« التَّبيُّن، (محمود الطناحي، . .

(الكوفى) ، لأن ابن سلام لم ينسبه كذلك إلا في موضع واحد من كتابه (ص: ٣٧٥) ، وكوفيته لا تشغل أبا عثمان ، إنما يشغله عرجه وهو يؤلف في العرجان . فهذا كما ترى قاطع الدلالة على أن الجاحظ قبل أن يؤلف (كتاب الحيوان) (وكتاب البرصان والعرجان) وقع إليه كتاب الجحمي بأَخَرَة عند تأليفه ، فقرأة ونقل منه ما نقل . وظني أن أبا عثمان ، كان قد سمع بكتاب الطبقات بعد وفاة ابن سلام ، ممن كان يختلف إليه من أصحابه وتلامذته ، لأن ابن سلام لم يقرأ كتابه على أحد في حياته ، فلما مات بقيت كتبه عند أهله ، فأرسل أبو عثمان إلى بعض أهله ، فاستعار الكتاب أيًّاما ، فقرأه على عجل ثم رده ، ثم نقلت كتبه بعد ذلك من بغداد إلى البصرة ، إلى ابن أخته أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحى ، ولم يقرأه أبو خليفة على الناس إلا بعد دهر طويل من وفاة ابن سلام .

ولمّا كان محمد بن سلام قد صدَّر كتابه في «طبقات فحول الشعراء»، برسالة في الشعر القديم وفي رواة هذا الشعر، ساقَه النظر إلى ذكر الشعر فقال: « إِنَّ أُوائل العرب لم يكنْ لهم من الشِّعر إلَّا الأبيات يقولُها الرجل في حاجته ، وإنَّما قُصِّدت القصائد وطُوِّلَ الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف (ض: ٢٦)، وأن «أول من قَصَّدَ القَصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي» (ص: ٣٩)، ثم قال: «كان امرؤ القيس بن محجو بعد مهلهل، ومهلهلٌ خاله، وطرفةُ، وعَبيد، وعمرو بن قميئة، والمتلمس في عصر واحدٍ » (ص: ٤١)، وأن امرأ القيس «سبق العربَ إلى أشياء ابتدعَها، واستحسنتها العرب، واتبعثه فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتَّبكَاءُ في الديار، ورقّةُ النسيب، وقُرب المأخذ وشبَّه النساء بالظباء والبيض، وشبَّه الخيل بالعِقْبَان والعصيّ ، وقيَّد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنَّى، (ص: ٥٥) - ولمَّا قرأ أبو عثمان مقالةَ ابن سلام في أوَّل كتابِه، أعجبتُهُ، وهزَّتْه، وذكَّرته بالخبر الهالك الذي جاء فيه أنَّ امرأ القيس «صاحبُ لِوَاءِ الشعراء إلى النار ، وأنَّه أوّل من أحكم الشعر »، بَدَا لَهُ أن يصوغَ من ذلك كُلُّه قضيَّة ، يزيد فيها على ابن سلام ، فاجتهد فصاغ قضيته الأولى : « أوَّل من نهج سبيل الشعر وسهَّل الطريق إليه ، امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة » ، وأعجبه ما صاغ إعجابًا مفرطًا، فإنه ابتدع ما لم يُسْبَق إليه، ولم يُبال بهذا الفرق الظاهر بين قوله هو: «أول من نهج سبيل الشعر»، وقولِ ابن سلام: «أوّل من قصّد القصائد»، وقول الخبر الهالك أيضًا: «أول من أحكم الشعر». فإن ألفاظ الخبرين جميعًا لا تتناولُ الحكم على أوليّة الشّعر نفسه، بل هي مقصورة على أوليّة تقصيد القصائد وذكر الوقائع فيها، أو على أوليّة إحكام الشعر، وأنّ مهلهلًا وامرأ القيس كانَ لكُلِّ منهما الفضل الأوّل في ذلك. بيد أن أبا عثمان لم يبال طرفة عَينْ أن ينقلَ هذه الأوّلية من معنى خاص محدود، هو تقصيد القصائد وتطويلها، إلى معنى عام مُطلّق جامع هو «الشعر» نفسه. واستحوذ على أبي عثمان إعجابُه بنفسه، وثقته بحسن رأيه ونظره، أن يزدادَ سبقًا في الاستخراج والاستنباط، فزاغ زيغة منكرة مُفْرطة الغرابة، فأعاد صياغة القضية صياغة جديدة يُلقيها مُسَلَّمة لا تحتاج إلى برهان فقال: «أما الشعر فحديث الميلاد صغير السنّ، أوّل من نهج سبيله، وسهّل الطريق إليه: امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة».

وصَدْرُ هذه القضية مشتقٌ من قول ابن سلام: «وإنما قصّدت القصائد وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف»، لقرب عهدهما من مولد رسول الله ﷺ فهو «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف». والأمرُ بَيِنٌ جدًّا كما ترى!!

ولم يقنع أبو عثمان بهذا ، بل أَرادَ أن يَدْعَم هذه القضية بدليل مبتدع آخر لم يسبق إليه . فسوّل له إعجابه بنفسه وبرأيه ، وبالقضية التي بهرته صياغتُها حين صاغها ، فزاغ زيغة أخرى أشدَّ جورًا ، فابتغى أن يحدِّد ميلاد الشعر تحديدًا لا يُختَلَفُ عليه ، فطلب من شعر امرىء القيس الذي كان عنده أوّل من نهج سبيل الشعر كما زعم ، دليلًا أشد ظهورًا وتحديدًا ، وأوثَقَ حجّة من قول ابن سلام في شأن أولية تقصيد القصائد على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فأسعفه شعر امرىء القيس بأبيات فيها ذكر «حميرى بن رياح بن يربوع ابن حنظلة » و «عُدُس بن زيد بن عبد الله بن مالك بن حنظلة » ، « وعدس » ،

هو رأس بني تميم في زمانه، وابنه زرارة بن عدس، رأس تميما أيضًا، وهو مشهور لا يخفى ذكره ، لاقتران اسمه بأشنع يوم مذكور في بني تميم ، يوم أن حرّق عمرو بن هند مئة من تميم في يوم أوارة الثاني، وهو مشهورٌ أيضًا معروفٌ قُرْبُ تاريخ حدوثه من تاريخ مولد رسول الله ﷺ . وإذن ، فما أيسَر الأمر وما أبينه! وإذنْ ، فقد أوفَى أبو عثمان على الغاية ، وسَبقَ ، فحقَّ له أن يختم ما استخرجتْه براعتُه فيقول مُدِلًّا متبخْترًا: « فانظرْ كم كان عُـمْر زرارة ، وكم كان بين موت زُرارة ومولد النبيّ عليه الصلاة والسلام، فإذا استظهرنا الشُّعْرَ، وجدنا إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار، فمئتى عام». وانتقالُ أبي عثمان من الاستدلال بالشعر الذي فيه ذكرُ «عُدُس»، دون أن يذكر أنه يعنيه أو يريده، ثم إلقاؤه اسم «زرارة» غُفُلًا بعقب ذلك مباشرة دون أن يشير إلى أنَّه «زرارة بن عُدُس»، واطِّراحةُ ذكر «يوم أوارة الثاني» الذي جاء عقب موت «زرارة»؛ وإغضاؤه عن الاحتجاج لتاريخ ذلك اليوم متى كان؟. أقول هذا الانتقال المفاجىء، وسِياق عبارته في الأمر والاستفهام وتفويض الأمر كله إلى سامعه أوقارئه غايةٌ في الإدلال والتشامخ ليس بعدها غاية! وما حاجة أبي عثمان إلى تفسير هذا الاستدلال الحسابيّ ، إذا كان الأمرُ أوضح مِنْ أن يفتقر إلى بيان ؟!! وقد بيناه نحن آنفًا إكرامًا لأبي عثمان!

وقد ظنَّ أبو عثمان ما ظنَّ فى لُطفِ ما سبق إليه ، وفى براعة ما ابتدعه . واحتملته خيلاؤه التى لا تفارقُه فَقَيَّدَه فى أوّل «كتاب الحيوان» ، وكان حديث عهد بقراءة كتاب ابن سلام ، ليكون عند نفسه وعند الناس قد أربى على الجمحيّ ، وافترعَ قولًا هو أحسن من قوله وأوثق ، وأنه أتى على ما أبهمه ابن سلام فأضاءه ونفى عنه الظلام . بيد أن الحقَّ دامغٌ ، يغسِلُ تهاويلَ الزينة الظاهرة عن وجه كُلِّ قضية باطنُها باطِلٌ . وقضية أبى عثمان فى أولية الشعر ، هى كما رأيتَ ، دعوى باطلة مركبة على دَعْوى باطلة أخرى لا أصل لَها ، وكلتاهما لاحجَّة عليها يجب التسليمُ لها من نصَّ أو نظر . لقد بطلت قضيتُه وتكشفت

عنها زينتها، وعادت عجوزًا غير ذات خليلِ، كما يقول امرؤ القيس (١). شَمْطاءَ جَزَّتْ رأْسهَا وتنكَّرَتْ مكروهة للشمِّ والتقبيل

فالعجبُ كلّ العجب بعد ذلك، لمن يعتمد قول الجاحظ في أولية الشعر وعمره، وحداثة ميلاده وصغر سنه! ولم يبق في أيدينا ثما يعتمد عليه، إلّا الذي لم يختلفُ عليه أحدٌ، وهو أنّ من أقدمٍ ما وصلَنا من شعر الجاهلية، شعر مهلهل وامرىء القيس وأقرانهما، فإن شئت ألا تفجع أبا عثمان في قضيته وحسابه فزد على ذلك أن الذي بين الرجلين الشاعرين وأقرانهما وبين مجيء الله بالإسلام، يتراوح ما بين مئة وخمسين سنة، إلى مئتي سنة. هذا غاية ما يمكن التسليم بصحته، لا أكثر ولا أقل. ومع ذلك فالأمر على هذا الوجه ليس يقينًا جامعًا، ولا حقًا قاطعًا.

وإذنْ ، فقد صارَ قولُ الجاحظِ الآن لا يعنينا في شيء ، والذي ينبغي أن يعنينا هو ما قاله ابن سلّام في رسالة كتابه «طبقات فحول الشعراء» ، فالرجل أشدُّ من أبي عثمان تحرِّيًا وضبطًا ، وأبلغُ منه تحقّقًا وتَثَبَّتًا في رواية الشعر ونقده ، وهو بلا ريب أعلم به منه وأخبر . فمن الحسن إذنْ أن نُقبل بوجوهنا عليه ، وأن نحاول أيضًا تحليل أقواله تحليلًا متأنيًا ، يَقِفُنَا على أوَّل مَدْرِ بَعة الصواب ، ويَجُوزُ بنا طريق الشَّك إلى قرارة الحقِّ واليقين ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله المخرجِنا من ظلمات الحيرة والضلال إلى نور الهُدَى والطمأنينة .

وقبل كُلِّ شيء، وقبل النظر في مقالة أبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي في كتابه، «طبقات فحول الشعراء»، أجده لزامًا لا مفرَّ منه، أن أكشف عن شيء من منهجي في قراءة كتب القدماء من علمائنا رحمهم الله. فقد غَبَر عليَّ زمانٌ طويل في مدارسة كتبهم، على اختلاف موضوعاتها،

<sup>(</sup>۱) هكذا جاءت النسبة فى الأصل . وهو الأخير من ثلاثة أبيات مختلف فى نسبتها بين عمرو ابن معدى كرب وامرئ القيس . وانظر تفصيل الحلاف وتخريج الأبيات فى ديوان عمرو بن معدى كرب (مطاوع الطرابيشى) ص ١٤٢

واختلاف أزمَّنة مؤلفيها ، ولقيتُ العنت وما فوق العَنَتِ في التردَّد ما بين الخطأ والصواب في فهم بعض ما يقولون ، فأسلمني ذلك إلى حالةٍ من الشك تأخذُ بأَكْظَامي، وأنا أقرأ بعض كلامِهم، حتى ما أطيق أن أتنفس، وأظلُّ حائرًا متهيِّبًا أن أقول برأي قاطع في فهم ما أقرأ، وتغلبنيي غمرة طاغيةٌ من قلَّة الثقة بفهمي وبمعرفتي. ورُبُّ حرفٍ واحدٍ في كلامِهم ينقُلني من موقف الواثِق، إلى موقف مناقِض ينفي هذه الثقة، ثم يأتي بعده حرف آخر يحملُني من موقفي هذا، فيطرحني مرةً أخرى إلى الموقف الأول في الثقة والاطمئنان، وهكذا دواليك حتى أضيقَ بما أنا فيه . فمن أعجل ذلك ألجأ دائمًا إلى إعادة النظر مرةً بعد مرَّةٍ، وأحاولُ أن أستوعبَ في كُلِّ مرةٍ قدرًا من الشكوك وقدرًا من اليقين، وأعرضُ هذا على الكلام كُلِّه شيئًا بعد شيء، حتَّى أزيل التخالف الداعي إلى الشَّكُّ ما استطعت. ومعنى ذلك: أن ألجأ إلى تحليل الألفاظ ثم الجُمَلِ تحليلًا دقيقًا، في خلال النصْ كُلُّه طال أو قَصُر، ثم أعيدُ تركيبَه بعد أَن يَزُولَ كُلُّ غموض يكتنف الألفاظ، وكُلُّ تشقُّقي يسرى في الجُمَل، وكُلُّ انتشار يُبعثر مقاصدَ كاتبه على أنظارنا نحنُ المحدَثين من أهل العربية. وهذا أمرٌ يطول الحديث عنه، ولا يظهر ظهورًا جليًّا إلَّا بمثل مضروب يدلُّ عليه، وقد كانَ ذلك في بعض ما كتبتُ قديمًا، وكانَ منذ قليل في تحليلي لكلام أبي عثمان الجاحظ على وجه من وجوه هذا المنهج، وسيكونُ شيءٌ منه بعد قليل في تحليل كلام ابن سلام في رسالة كتابه «طبقات فحول الشعراء»، وحتى عنوانُ هذا الكتاب نفسه لم يسلم عندى من الشك والتحليل.

وذلك أنى منذ عهد قديم ، وقفت حائرًا متلدّدًا فى ضبط معنَى بعضِ ألفاظِ تدور بيننا اليومَ قريبة واضحة المعنى ، ثم لا نجد فى أنفُسِنا سببًا يحملنا على إعادة النظر فى حقيقة معناها ، ثم عند التوقّف والشك ، ومع الأناة والتردادِ ، ظهر لى أنَّ بعضها فى كلام ابن سلام عند تحليله ، أصبح محفوفًا بمعانٍ غير

المعاني التي ألِّفتُها وألِّفها العلماء والأدباء في زماننا وقبل زماننا، لم يُسَاورهم ولم يُسَاورني أنا أيضا من قبلُ شك في معناهَا الواضح المألوفِ عندنا. فلما توقفتُ فيها فيما بعدُ لأسباب كثيرة ، لم يكن ذلك عندى مستغربًا ، لأن بعض الألفاظ التي استحدثها قدماء علمائنا من أهل العلم، في كُلِّ فنِّ منه، لم تكن يومئذٍ قد استقرَّت معانيها على الوجه الذي انتهي إلينا وألفناه نحنُ في كتب مَنْ بعدهم من العلماء والأدباء. وهذا أمرٌ معروف مقرّر بلا ريب فيه ، ولكنّ الإلفَ يغطِّي عليه ويُنسِيناه . فمن ذلك ، مثلًا ، في كتاب ابن سلام لفظ «طبقة » ، استعمله صاحبنا في ثنايا كتابه ، ثم جعل جمعه «طبقاتٍ » عنوانًا لكتابه . وهذا اللفظ مألوفٌ معروف عندنا وعند من سبقنا من العلماء، وسمُّوا كثيرا من كتبهم به، فقالوا: «طبقات الفقهاء»، «وطبقات الأدباء» و«طبقات الأطباء»، و« طبقات الشافعية » و« طبقات اللغويين والنحاة » و« طبقات الأمم »، و «طبقات الصوفية » ، وعشراتٌ من الكتب تحمل لفظ «طبقات » ، وهو في جميعها مفهومٌ واضح. ولمّا تعرَّضَ المحدّثون من علمائنا لكتاب ابن سلام، حملوا معنى « الطبقة » و « الطبقات » عنده على ما ألفوه ، فقالوا بتفضيل الطبقة الأولى من فحول الجاهلية على الطبقة الثانية منهم، وهكذا، لأنَّه ظاهر أنَّه لم يقسِّم هؤلاء الشعراء على وَفق الزمن وتاريخ المولد والوفاة ، فلم يبق في أيديهم إِلَّا معنى واحدٌ من معانى «الطبقة»، وهو تفضيل طبقة على طبقة، وهو معنى لا يريده ابن سلام، وليس في كتابه شيء يدلُّ عليهِ، بل فيه ما يدلُّ على أنه لاَ يريد هذا التفضيل البتة. وقد بينتُ في مقدمة الطبعة الثانية من نسختي من «طبقات فحول الشعراء» (ص ٢٤، ٢٥) ما أنا فيه من التردّد في فهم هذا اللفظ، ثم عدت في المقدمة نفسها، فحلَّلت هذا اللفظ، وحاولت تتبُّع تاريخه، وانتهيت إلى ما أظنُّ أنَّه حقيقة ما يعنيه ابن سلام بهذا اللفظ، وذلك في المقدمة من ص ٦٥، إلى ص ٦٩، ثم قلت في ختام ذلك: «وسيبقي أمر كتاب « طبقات فحول الشعراء » بعد ذلك ، محتاجًا إلى دراسة وتفصيل وتَتَبُّع ، وإلى تفلية لأصول ابن سلام في النظر ، ولأسسه التي بني عليها نقده في الشعر ،. وهو خليق بأن تبذلَ في دراسته الأعوام ، لأنه أقدم كتابٍ وصل إلينَا من كتب قُدماء نقاد الأدب والشعر ، بل لعلّه طليعة كتب النقد في الأدب العربيّ . وهو حقيق بهذه المنزلة من التقديم والجلال » . وهذا كافٍ إن شاء الله ، في الدلالة على بعض منهجي في تحليل هذه الرسالة الجليلة التي استفتح بها أبو عبد الله ابن سلام الجمحي ، كتابه «طبقات فحول الشعراء» .

أمّا رسالة كتاب ( طبقات فحول الشعراء ) ، وهي مقدمته التي استغرقت نحو خمسين صفحةً من طبعتي الثانية لكتابه ص(٣-٥٠) . والتي قسمتها أنا إلى خمس وخمسين في فرة ، أو لاهنّ إسناد الكتاب ، فلي في جملتها وسياقها حديث قصير ، لا بُدّ منه ، حتى يكون ما أقوله واضحًا ، وليكون ما نتولاه من يريد أن تحليل مقالة ابن سلام في صدر كتابه واضحًا أيضًا ، ومُيَسِّرًا سبيلَ من يريد أن يتعقّب كلامي ، وهو ينظر في الأصل ، وهو الكتاب المطبوع . والذي يوجب ذلك أن القدماء من علمائنا كانوا لا يجدون في الاستطراد حَرَجًا على أنفسهم ولا على سامعيهم أو قارئيهم ، وكانوا لا يرون به بأسًا ؛ لأنه يعينُ على بَدْلِ علم أو معرفة نافعة في جانب من جوانب الموضوع الذي يتحدثون فيه . حتى يبلغوا مِنْ ذلك أن تجد أداة الشرط في أوّل الحديث ، ثم تنقضي عدة صفحاتٍ طوال حَدًا حتى تقف على جواب الشرط . تجد هذا عند الشافعي والطبريّ وغيرهما من أهل العلم ، رضى الله عنهم . ولهذا من فعلهم أسبابٌ كثيرة ، ليس هذا موضع بيانها . وسترى مصداق ذلك في رسالة كتاب ( طبقات فحول الشعراء ) ، كما أصفها الآن :

بدأ ابن سلام عرض كتابه وسبب تأليفه في الفقرة الثانية (ص٣ من المطبوع) فقال:

«ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيَّامها ، إذ كان لا يُحَاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب، وكذلك فرسانها وساداتُها وأيّامُها. فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهلهُ عالمٌ، ولا يستغنى عن علمه ناظرٌ في أمر العرب، فبدأنا بالشعر».....

وواضح أنّه أراد هنا أن يبيّن منهجه في تأليف الكتاب، وأنه سيذكر بعقب ذلك تتمّة عرضه لعمله في التأليف، ولكنه قطع هذا العرض فجأة، ولم يَعدُ إلى وصلِ الحديث عنه إلا في الفقرة الحادية والثلاثين (ص: ٣٣) فقال متمّمًا ما بدأ به: «ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزّلناهم منازلهم، واحتججنا لكلّ شاعرٍ بما وجدنا له من حُجّةٍ، وما قال فيه العلماء ...»، ثم استطرد بعد ذلك في حديث متصل عن هذا الشعر منذ انتهى من هذه الفقرة الحادية والثلاثين، ثم عاد في الفقرة الخامسة والخمسين (ص: ٩٤) فقال متمما عرض كتابه أيضًا فقال: «ثم أبينا اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم، إلى رهط أربعة، اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة ...» وختم بتمام هذه الفقرة رسالة أربعة، اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة ...» وختم بتمام هذه الفقرة رسالة السياق الأوّل في مقدمة كتابه.

ثم يأتى سياقٌ ثان معترض يبدأ من الفقرة الثالثة (ص: ٤)، وينتهى عند آخر الفقرة الثالثة عشرة (ص: ١١) يبدأه بقوله: «وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ...»، يتعرَّض فيه لبيان رأيه في هذا الموضوع، ويكشف عن حقيقة بطلانه.

ثم يبدأ سياقًا ثالثًا يذكر فيه علماء العربية، منذ الفقرة الرابعة عشرة (ص: ١٢) إلى أن ينتهى بالفقرة الثلاثين (ص: ٢٣)، بادئًا بذكر أبى الأسود الدؤلى، ويحيى بن يعمر العدوانى ، وقتادة، وإسحق بن سويد، وميمون الأقرن، وعنبسة الفيل، ونصر بن عاصم الليثى، وعبد الله بن أبى إسحق الحضرميّ، وعيسى بن عمر، وأبى عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، ومسلمة بن عبد الله الفهرى، وحماد بن الزبرقان، ثم الحليل بن أحمد الفراهيدى، ثم أبى محرز خلف بن حيان، وهو خلف الأحمر، ثم الأصمعيّ، وأبى عبيدة، وكلهم من أهل البصرة، ثم يختم هذا السياق، فيقول: «وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضّل بن محمد الضبى الكوفيّ».

### وإذن فترتيب سياق المقدمة جملة هو هكذا:

السياق الأول: ١، ٢، ثم ٣١ إلى ٥٥. السياق الثاني: من ٣، إلى ١٣. السياق الثالث: من ١٤، إلى ٣٠. ووضوح هذه السياقات الثلاثة المتداخلة والفصل بينها واجبٌ ومهم جدًّا لمن يريد أن يفهم ما يريدُ ابن سلام بكلامه، وهو أشدُّ وجوبًا لمن يحلُّل ألفاظه وجُمَلهُ بغْية الوقوف عَلَىَّ مقاصده ، بلا خَلْطِ بين كلامين مفترقين متباينين . وبَيِّر ب جدًّا أن ابن سلام قد قطع تمام كلامه في الفقرة الثانية التي يعرض فيها نهج كتابه، والتي وصلها بعد ذلك بزمان في الفقرة الحادية والثلاثين إلى الخامسة والخمسين، معترضًا مستطردًا بفصلين مختلفين، أولهما عن «المصنوع» من الفقرة الثالثة إلى آخر الثالثة عشرة. وثانيهما عن علماء العربية من الفقرة الرابعة عشرة إلى الفقرة الثلاثين (١٢: ٢٣). وبهذه المناسبة عند ذكر هذا الفصل الثاني الطويل، أحبّ أن أَذْكُر وهمًا كبيرًا وقع فيه إمامٌ جليلٌ من قدماء علمائنا أيضًا ، يذُلَّنا على وجوب التأنّي وإعادة النظر ووضوح الفصل بين هذه الفصول التي تضمنتها رسالة كتاب «طبقات فحول الشعراء»، وذلك أنّ إمامنا أبا على القالي صاحب كتاب الأمالي والنوادر (المولود سنة ٢٨٨) والمتوفى سنة ٣٥٦) وهو قريب العهد من ابن سلام، قال في أماليه (١: ١٥٧): «وقال محمد بن سلام في كتاب «طبقات العلماء» ، «كنا إذا سمعنا الشعر من أبي مُحرِز ( يعني خلفًا الأحمر ) لا نبالي ألَّا نسمعه من قائله» وهو الجزء المذكور في كتاب «طبقات فحول الشعراء رقم ٢٩ من هذا الفصل الثاني، وليس لابن سلام كتابٌ بهذا الاسم، ووهِم أبو على لأنه اعتمد على ذاكرته، ولم يكن كتاب ابن سلام من بين الكتب التي حملها معه إلى الأندلس، كما يدلُّ على ذلك فهرست ابن خير الإشبيلي . وقد أشرت إلى ذلك في مقدمة الكتاب ( ص : ٣٨) . وهذا الوهم ، علَى هَوَانه ، يحذّرنا ويوجبُ علينَا الحرص على الأناة والدقة ، مخَافة أن نقع فيما هو أجلُّ وأخطر، وأبعدُ أثرًا في إساءة فهم كلام أبي عبد الله بن سلام، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. لم يكد أبو عبد الله محمد بن سلام الجُمحيّ يستفتِح رسالة عرض منهج كتابه بالفقرة الثانية التي ختمها بقوله: «فبدأنا بالشعر»، والتي نقلتها آنفًا من قريب، حتى هجم بغتةً على إحدى قضايا «الشعر»، وهي قضية المصنوع المفتعل منذ أوّل الفقرة الثالثة فقال:

«وفى الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجةً فى عربية، ولا أدبٌ يستفادُ، ولا معنى يُسْتخرَج، ولا مثلٌ يُضْربُ، ولا مديح رائعٌ، ولا هجاءٌ مُقْذِعٌ، ولا فَخْرٌ مُعْجِبٌ ولا نسيبٌ مستطرفٌ، وقد تداولَهُ قومٌ من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوهُ عن أهل البادية، ولم يعرضوهُ على العلماء، وليس لأحد، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه، أن يقبل من صَحيفة، ولا يَرْوِى عن صُحُفِيعٌ. وقد اختلفت العلماء بعدُ في بعض الشعر، كما اختلفت في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه». وهي الفقرة الثالثة كُلُها.

وهذه عبارة واضحة جدًّا عند النظرة الأولى، ليس فيها معنًى غامضً يوجب الأناة والتأمَّل، وقد مررتُ بها مرارًا وأنا أعيد قراءة كتاب ابن سلام، فما توقفت ولا تردّدتُ. وحتى المباغتة التى ارتكبها ابنُ سلام فى انتقاله وقطع حديثه عن عرض الكتاب إلى أن تبدأ الفقرة الثلاثين، لم تختلجني إلى الشَّك فى فهمى وإعادة النظر فى ألفاظها. ومضَى دهْرٌ قطعتنى فيه عن ابن سلام القواطع، ثم أتى على يوم فانتبهت فيه فجأة إلى أَنَّ هذه الفقرة قد غابتْ عن الطبعة الأولى المختصرة من «كتاب الطبقات»، والتى طبعها الأعجمى يوسف هل فى مدينة ليدن سنة ١٩١٦، وعن طبعته الثانية فى القاهرة سنة ١٩٢٠، فكانَ غيابُها عن هاتين الطبعتين اللتين رجع إليهما العلماء والأدباء إلى أن طبعت لنسختى التامة منه فى سنة ١٩٥٦، قد قَاد أوّل المشككين فى الشعر الجاهلي النافين لصحة ما روى منه، إلى فساد كثير فى الرأى. وإلى خلل مفزع فى النظر. فلمّا حضرت هذه الفقرة نفْسها فى نسختى، فُهِمت على غير وجهها، النظر. فلمّا حضرت هذه الفقرة نفْسها فى نسختى، فُهِمت على غير وجهها، ووضعت فى غير موضعها، وصارت مُحجّةً فى معان هى فى الحقيقة مُحجة

عليها لا لها، ثم أفضت إلى تفسير سائر كلام ابن سلام في رسالة كتابه تفسيرًا غير صحيح. فيا عجبا لها من فقرة! كان حضورها في نسختنا من الطبقات ضارًا، وكان غيائها عن نسخة يوسف هل ضارًا أيضًا! وإذنْ، فللكلام كما للناس أضرارُ، في مشهدهم ومغيبهم!

وعلى الأيام غلا بي ارتيابي في شأن هذه الرسالة ، ودون أن أرجع إلى نص كلام ابن سلام، وجدتُ في نِفسي، أو وقع في رُوعي على الأُصحّ، أن الأمر لا يخرجُ عن أحد احتمالين: إمّا أن يكون سَقَط من أصل كلام ابن سلام شيء مُهِمٌّ ، وإمَّا أن أكون أنا قد أسأت فَهم ما قرأت. فعُدت أقرأ الرسالة كلها متمهِّلًا، فلم أستطع أن أتبين موضعًا أقول فيه: ههنا شيء مفقودٌ، ووجدت أيضًا أنى قد نَبَّهْتُ في تعليقي على الكتاب، وبيّنت مواضع الاعتراض والاستطراد بيانًا غير مختل ولا ناقص. وإذن، فقد بطل احتمال ضياع شيء من كلام ابن سلام، ولم يبِّق إلَّا أن تكونَ الآفة من سوءٍ فهمي لكلامه، ولم أَكذُّبْ، فقرأتُ مِرةً أُخرَى، ولكني لم أظفر بالذي أبتغيه من اتِّهام نَفْسي وإساءتها، فأصحِّح ما أسأت فيه، ولكنّ القراءة ثم إعادة القراءة قد أظفرتني بشيء مهمٍّ جدًّا، وهو أنّ مباغتة ابن سلام بانتقاله من الفقرة الثانية التي بدأ فيها عرض منهجه في كتابه، والتي ختمها بقُوله: «فبدأنا بالشعر». قبل أن يستتم عرضه إلى فِقْرة ثالثة يتحدث فيها عن ضرب من الكلام «مصنوع مفتعل موضوع » مستطردًا متدفّقًا في بيان خُبثُ هذا الشعر وعُواره ، ثم لا يكفُّ حتى يبلغ أقصى الفقرة الثالثة عشرة - أقول: انقلبت هذه المباغتة التي ألفت أشباهها في بعض كتب القدماء من علمائنا، إلى طَفرة غريبة مُفرطة الغرابة، تزدادُ غرابتُها ظهورًا وعلانيةً حين يستمرُّ في إعراضه وازوراره عن إتمام ما ابتدأهُ في الفقرة الثانية ، غير مبال نَقْرةً ولا فَتْلةً بما هو فاعلٌ ، لا تساورُه أدني رغبة في وَصْل ما انقطع من حديثه ، بل زاد تدافُعًا في غُلُواء استطراده الأوّل باستطراد ثان يبدأ مُنْذ الفقرة الرابعة عشرة إلى أن يكفكف من تدافعه وتدفَّقه عند منقطع الفقرة الثلاثين، ثم يكفُّ فَجأةً أَيضًا، ثم لا يفصل بينها وبين الفقرة الحادية والثلاثين بنَفَس أو نَفَسين ليستريح، بَلْ ينطلقُ كأنه لم يقُلْ شيئًا، وكأن ختام الفقرة الثانية لم يكد يَفْصِل بعد عن لسانه وهو يقول: «فبدأنا بالشَّعر»، فيستمر قائلًا: «ففصَّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزَّلناهم منازلهم .....»، ويسير على هِينته يعرض نهج كتابه حتى انقضى العرض عند آخر الفقرة الخامسة والخمسين. هذا عجبٌ! وابتداؤه هذه الفقرة الحادية والثلاثين بالفاء العاطفة المعقبة (أى التي تفيد العطف والتعقيب) في قوله: «ففصلنا» منبتُّ كُلِّ البتِّ عن الفقرة الثلاثين، وملتحم تمام الالتحام بالفقرة الثانية، على بعد ما بينهما. فسياق كلامه إذن: «فبدأنا بالشعر، ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية ...» ورحم الله أبا عبد الله وغفر له.

ما هذا الذى فعله ابن سلام؟ ولِمَ؟ وفيم؟ وعَلام؟ وأسئلةً أخرى كثيرة، فاستيقنت نفسى أنى لن أجد إلى جوابها سبيلًا إلّا بعد تحليل هذه الفقرة الثالثة تحليلًا شافيًا كافيًا معينًا على استخراج مَا كَمَن فيها وفى ألفاظها من دوافعه ومعانيه، ثم أعرضُ ما أقف عليه عرضًا متصلًا بلا مللٍ، وإلّا فإنى واقف طويلًا حيث أنا من حيرتى وتلدُّدِى، بلا بصيصٍ من نور يهدى. وما كذَّبتُ أن فعلتُ، وكانت غُمةً فانزاحت، وتبلَّج عَمودُ الصبح عن بياضه، بحمد الله على إحسانه وفضله. وبيان ذلك:

أنى رأيت هذه الفقرة المباغتة التى شرع ابن سلام يحدثنا فيها عن «مصنوع، مفتعل، موضوع»، قد اشتملت على ذكر «ناس» لم يحدد هو معارفهم وأوصافهم فى كلامه، ولم يفصل بين ناس منهم وناس، واشتملت أيضًا على ألفاظ لا ندرى نحنُ حدَّ معانيها عنده، قبل أن تنتهى إلينا محمّلة بمعان نشبت فيها على مرِّ القرونِ وعلى طول الاستعمال. فاستخرجت منها خمسة وجوه ملتَّمة، لا بُدَّ من كشف القناع عن ملامحها حتى نتبين قسماتها تبينًا ينفى عنها الغموض والإبهام، وهذه هى على ترتيبها فى كلام ابن سلام:

الوجهُ الأول: « قوم تداولوا شعرًا من كتاب إلى كتاب ». ولا ندرى مَنْ من الناس يَعْني ابن سلام؟

الوجه الثانى: وصف هؤلاء القوم بأنهم «لم يأخذوا هذا الشعر عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء»، فذكر «أهل البادية» «والعلماء». وهذا أيضًا غير محدّد، لأنا لا نعرف ماذا يريد بقوله «أهل البادية»، ولا نعلم من هُمْ هؤلاء «العلماء»؟

الوجه الثالث: ذكر قومًا آخرين سماهم «أهل العلم والرواية الصحيحة»، لهم وحدهم حقّ إبطال بعض هذا الشعر، ولكنه لم يبين من هم «أهل العلم» ولا معنى ما يريده بالرواية الصحيحة.

الوجه الرابع: ذكر «صحيفة» نهى عن قبول هذا الشعر عنها، وذكر «صحفيًا» نهى كُلَّ أحد أن يروى عنه هذا الشعر. وأيضًا تركّنا في عـــمياء دون أن يبيّن من يكون هذا «الصحفة» ودون أن يبيّن من يكون هذا «الصحفى» ؟

وهذه الوجوه ، غيرُ ممكن تبيُّن ملامحها وحدودها على وجه الدقة ، فيما أظنُّ ، حتى يتمَّ توسُّم آخرِهنّ ، وهو الوجه الخامس ، ولذلك رأيتُ أن أتجاوزها حتى أفرغَ منه .

أمّا الوجه الخامس: فهو وجه «الشعر»، وهو عندى أخفاهُن صورة، وأعسرُهن على التوسَّم، وهو أحقّ بالتقديم، لأنه هو الحقيقة المشتركة الموزَّعَةُ بين جميعهن . وتحليلُ معانيه عند ابن سلامٍ في سياق هذه الفقرة، هو الذي سيضيء بنوره معارف هذه الوجوه الأربعة، فنخرج من الشك والتردّد، إلى اليقين والاطمئنان .

كان انتقال ابن سلام المفاجىء من منتهى الفقرة الثانية إلى رأس الفقرة الثالثة على هذا الوجه: «فبدأنا بالشعر، وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثيرٌ لا خير فيه». وأيسرُ النظر والتأمل دالٌ على أن في أيدينا قسمةً واضحة، تجعل «الشعر» قسمين: أحدهما ظاهر في صريح لفظه، وهو «الشعر المصنوع المفتعل

الموضوع»، والآخر محدث مضمر يخرج بدلالة المخالفة وهو «الشعر غير المصنوع». وظاهر السياق بعد ذلك يوهم أن كُلَّ ما في هذه الفقرة مصروف إلى الظاهر منهما وهو «الشعر المصنوع» وحده، دون «الشعر غير المصنوع»، ولكتي بعد تأثيل وجدت الأمر غير مستقيم ولا واضح، لأنه بعد أن فرغ من وصف «الشعر المصنوع»، أتى بجملتين متتابعتين فيهما أربعة ضمائر، أولاهن فيها ثلاثة ضمائر متتابعات في قوله: «وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء»، فهذه الثلاثة لا غضاضة في عودتها إلى «الشعر المصنوع»، إلّا الضمير الثالث في «لم يعرضوه»، فإن عودته إليه قد تجعل هذه الجملة فضولًا محضًا لا معنى له، لأنه إذا كان جوهر الحديث كُلّه عن «الشعر المصنوع» وحده، فعرضه على العلماء وترك عرضه عليهم سواء، فإنَّ عرضه عليهم لا ينفعه شيئًا، ومحالٌ أن يصحّحوه أو يصححوا شيئًا منه؛ لأن الحديث هنا عن «الشعر المصنوع» لا عن غيره من الشعر.

ثم تأتى الجملة الثانية وفيها الضمير الرابع، وهى قوله: «وليس لأحد، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه، أن يقبل من صحيفة أو يَرُوِى عن صحفيً » فإن هذه الجملة إذا كانت بضميرها هذا تمامًا لِسياق الحديث عن «الشعر المصنوع» وحده، صارت أشدَّ فضولًا وبطلانًا واضطرابًا من الجملة السالفة، إذ لا معنى لإِجماع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء، أى بعض من المصنوع دون بعض، وهو عندنا هنا كُلُه مصنوع. وإذا أجمعوا على إبطال بعض المصنوع، فما حكم هذا الباقي، وهو مصنوع أيضًا؟ هذا خَلف من الكلام غير مستقيم بل أكبر من ذلك وأسوأ مصيرًا، أنه إذا كان السياق كُلُه عن «الشعر المصنوع» وحده، فإنّ هذه الجملة تكون عطفًا على ما قبلها، فإذا بدىء بالشرط الذى فيها، والشرط محتاج إلى جزاء، كان تركيبها هكذا: «وإذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه، فليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي»، وهو كلام، كما يقولون

«كبعر الكبش»، يقع متفرِّقًا غير جارٍ على نظم متصل ولا مشاكلة بين الشرط وجوابه، و« بَعْر الكبش»، هو الذي يقول فيه القائل:

وشِعْرِ كَبَعْرِ الكَبْشِ ، فرَّق بينه لسانُ دَعِيِّ في القريض دَخِيلِ

وهذا لا يُقْبلُ ممن هو دون ابن سلام بمنازل لا تعدُّ، فما ظنُّك بابن سلام! ولو كَانَ الحديث كله عن «المصنوع» وحده لكان حقُّ هذه الجملة أن تكون خاتمةً قائمةً برأسها، غير معطوفة على ما قبلها، وتكون نهيًا من ابن سلام عن قبول هذا المصنوع وروايته، فيكون حقُّ تركيبها: «وليس لأحدٍ أن يقبَل من صحيفة ولا يروى عن صحفى» بإسقاط الشرط المعترض الذي أحال معناها، وجعلها من تمام الحديث «المصنوع» معطوفة عليه. وبذلك يستقيم الكلام على بعض الخلل.

بل إن الأمر سينتهي إلى فسادٍ في المعاني والمقاصد أبلغ وأفحش ، فإنه يقول بعقب هذا الكلام مباشرةً: «وقد اختلف العلماء بعد في بعض الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأمّا ما اتفقوا عليه ، فليس لأحدٍ أن يخرج منه » فنحن بين اثنتين حيال هذه الجملة : إمّا أن تكون عن سياق حديثه عن «الشعر المصنوع» وحده ، والذي استمر في الحديث عنه إلى آخر الفقرة الثالثة عشرة = وإمّا أن تكون جملةً معترضة قائمة على حيالها في خلال الحديث عن «الشعر المصنوع».

فإذا كانت الثانية ، وذلك أن تكون جملةً معترضة في السياق قائمة على حيالِها ، لا علاقة لها بما قبلها من حديث «الشعر المصنوع» ، ولا بما بعدها منه ، كأنَّ ابن سلام أعرض عنه إعراضةً ليحدّثنا مبتدئًا عن «العلماء» الذين عندهم شغر شعراء العرب ، ويدلَّنا على أنّ هؤلاء العلماء قد اختلفوا في بعض ما عندهُم من شعر العرب ، واتفقوا على بعض ، فما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه فإن كان هذا منه ، فمعنى ما حدَّثنا عنه صحيح لا غُبارَ عليه ، وهو حق كُلُه ، لا يَقْدَحُ فيه أنه لم يبيّن لنا معنى اختلافهم هذا ، ما هو ؟ وما صورته ؟ وعلى أيّ وجه يكونُ ؟ أيختلفون في نسبة قصيدة ، ينسبها بعضهم إلى

شاعر جاهليّ بعينه، وينسبُها آخرون إلى جاهلي آخر؟ أم في نسبة بعض أبياتها إلى جاهلي، ونسبة بعضها الآخر إلى جاهلي غيره أو إلى جاهليين آخرين؟ أم في نسبتها كُلّها إلى مُخَضْره أو إسلاميّ؟ أم في نسبة بعضها إلى جاهليّ، ونسبة بعضها إلى مخضره أو إلى إسلامي ؟ ووجوه أخرى من الاختلاف كثيرة كلها صحيحٌ وممكنٌ. ولكن ينبغي هنا أن يبقى هذا الاختلاف بعيدًا كل البغد عن الصنع والافتعال والوضع، لأنّ ابن سلام كما قلنا قد قطع هذا الحديث وأعرض عنه إعراضة، ليحدثنا مبتدئًا عن شيء غير «الشعر المصنوع».. وإذا كان ذلك كذلك، فقد عدنا مرةً أخرى إلى «بعر الكبش» الذي يقع متفرًقًا متعاديًا متنافرًا، وبذلك يكون ابن سلام قد ارتكب عملًا غريبًا جدًّا، هو إسقاطه جملةً معادية لسياق حديثه عن «الشعر المصنوع»، يقذف بها في خلاله، وفي موضع لا يليقُ بها، وبلا هدفي مفهوم، وبلا داع يدعوه إلى ذلك خلاله، وفي موضع لا يليقُ بها، وبلا هدفي مفهوم، وبلا داع يدعوه إلى ذلك أو يسوّله له. وهذا غير سائغ، بل هو فسادٌ واختلالٌ في تنزيل الكلام منازِلَهُ، وسفّة متهوّرٌ في البيان والتبيين، وهو على أيّ وجوهه غيرُ مرضيً ولا مقبول. ولا أظن أنَّ أحدًا يرتابُ في أنّ ابن سَلّام منزة كل التنزيه عن مثل هذا الخلل والفساد بدلالة كتابه كله.

وأمّا إذا كانت الأولى، وهي أن تكون هذه الجملة جزءًا من سياق قد أخلصه للحديث عن «الشعر المصنوع» وحده، فعندئذ يصبح معنى قوله: «وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر» أن العلماء قد اختلفوا في بعض المصنوع من الشعر. وهذا كلام لا معنى له البتة، على أى وجه كان . وليت شعرى في أيّ شيء يختلفون ؟ أيختلفون فيمن صنعه وافتعله ووضعه؟ مَنْ يكونُ أو مَنْ يكونون؟ هذا سخف وقلة عقل = أم يختلفون فيقول بعضهم: يكونُ أو مَنْ يكونون؟ هذا سخف وقلة عقل = أم يختلفون فيقول بعضهم: هذا الشعر المصنوع غير مصنوع!! هذا الشعر المصنوع غير مصنوع!! هذه تخاليط مجرورين لا اختلاف علماء . وأشنع من اختلافهم اتفاقهم : أيتفقون على بعض الشعر المصنوع أنه مصنوع؟ وإذن ، فما حكم باقي المصنوع؟ وأيفوض هؤلاء العلماء أمره إلى غيرهم ليحكم عليه؟ فيقول الحكم ماذا؟ هذا

كُلُّه عجبٌ وفوق العجب، وهو بيقين باطلٌ وفوق الباطل، ومحالٌ أن يريد هذا المعنى رجل متهافت العقل، فما ظُنُّك بابن سلام. وإذْ بطل هذا الفرض يقينًا، فلم يبق إلّا الفرض الأوّل، أن تكون هذه الجملة معترضة قائمة على حيالها، لا علاقة لها بالحديث عن الشعر المصنوع = وأنها من حيث هي جملةٌ تامة، صحيحةُ المغنّى، على رغم كُلٌ ما قلته آنقًا من وقوعها موقعًا غريبًا معاديًا لسياق ما سبقها، وعلى رغم كل ما أدَّى إليه هذا الموقع الذي لا يليق بها.

وهذا التحليل الموجز المقتضب قد أفضى إلى غرائب في تركيب هذه الفقرة، وهذه هي على تتابعها في السياق:

أولاها: قوله في أوّلها: «وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثيرٌ لا خير فيه ، ولا حجّة في عربية ، ولا أدبّ يُستفاد ، ولا معنّى يستخرجُ ولا مثل يضربٌ ولا فخرٌ معجبٌ ولا نسيبٌ مستطرفٌ » وهذا بلا ريب حديث طويل عن «الشعر المصنوع» وكشف عَنْ عُوَاره . ثم يقول بعقبه ، وقد صَرَف أذهاننا كُلّها إليه: «وقد تداولَهُ قومٌ من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوهُ عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » ، فالضمائر الثلاثة في هذه الجملة مصروفة إلى «الشعر المصنوع» وحده خالصة له ، وهي لائقة به لا تُستنكر .

ثانيتها: وهي الجملة التي تليها مباشرة ملاصقة لها، وهي قوله: «وليس لأحد، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه، أن يقبَل من صحيفة، ولا يروى عن صُحُفيّ »، فهذا الضمير الرابع في «شيء منه»، هو أخو الضمائر الثلاثة وشقيقها راضع بلبانها، أو ابن عمها لحاً ، لازق نسبه بنسبها. والتبعيض في «شيء منه» تبعيض لما يعود إليه هذا الضمير، وهو «الشعر المصنوع»، والشرط المزحزَح عن مكانه، يجعلُ الجملة معطوفة على ما سبقها من حديث عن «الشعر المصنوع»، وأصل سياقة جملة الشرط هكذا: «وإذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه، فليس لأحدٍ أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفيّ ». وهذا خَلْف من الكلام لا يستقيم من وجوه، أفدحُها أن لا معنى لإجماع أهل العلم والرواية على إبطال بعض من وجوه، أفدحُها أن لا معنى لإجماع أهل العلم والرواية على إبطال بعض

المصنوع دون بعض. هذا، فضلًا عن أن قوله: «فليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى»، هو جزاء للشرط فى صدر الكلام من جهة التركيب النحوى، ولكنه من جهة المعنى «بعر كبش» محض، إذ لا مشاكلة بين المعنى الذى فى الشرط والمعنى الذى فى الجزاء، كالذى يقول: «إذا كبر الإمام مستقبل القبلة وكبر المأمومون، فليس لأحد أن يعبد غير الله»!! وهو كلام كما ترى! وإذا أريد لهذه الجملة أن تدخل فى حيز الحديث عن «الشعر المصنوع»، فلا مفر من إسقاط جملة الشرط برُمَّتها، فتكونَ ختامًا للحديث عن «الشعر الشعر المصنوع» ونهيًا عن قبوله، أى تصير: «وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى»، فهى عندئذ لائقة بالحديث عنه، غير مستنكرة فيه. ولكن أنَّى لنا هذا!.

وثالثة الغرائب: جملة تختم بها هذه الفقرة التي جرى الحديث فيها خالصًا للشعر المصنوع، وهي قوله: «وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر، كما اختلفت في سائر الأشياء، فأمّا ما اتفقوا عليه، فليس لأحدٍ أن يخرج منه»، فكانَ محالًا كذبًا، كما يقول سيبويه، أن يكون لفظ «الشعر» فيها يراد به «الشعر المصنوع»، وإلّا صار اختلاف العلماء واتفاقهم هنا ضربًا مزيدًا من تخاليط الموسوسين. ولكنها إذا فصلت عن السياق، فهي في ذاتها صحيحة المعنى لا غبار عليها، لا بل صادقة بيّنة الصدق، لأن العلماء فيما نعلمه يقينًا قد اختلفوا في بعض ما عندهم، واتفقوا على بعض. ولما كان ذلك كذلك، وكانت محالًا كذبًا في سياق ما قبلها، فهي إذنْ جملة معترضة قائمة علي حيالها، نُرّلت في الكلام منزلا لا يليقُ بها، وهو تنزيل، شئنا أو لم نشأ، مُخِلً متهوّرٌ.

وإذنْ فهذه فقرة فيها ثلاث جمل متتابعات آخذ بعضها برقاب بعض: الأولى أَصْلٌ في الحديث عن «الشعر المصنوع»، بلا ريب، وفيها ثلاثة ضمائر راجعة إليه = والثانية: فيها ضمير رابع هو شقيق الضمائر الثلاثة الماضية، وبذلك صارت من تمام الحديث عن «الشعر المصنوع»، ولكنها عندئذ أيضًا خَلْفٌ من

الكلام لا يستقيم، وكلام أيضًا يعادى بعضه بعضًا = والثالثة: بيقين قاطع خارجة من سياق الحديث عن «الشعر المصنوع». هل هذا ممكن؟ هل هذا لائق؟ هل هذا كلام؟ والأمرُ لله من قبل ومن بعد!!

\* \* \*

وقعْنَا، إذن، في الذي يقول فيه مضرِّسُ بن رِبْعيِّ الفقعسيّ :

وليلٍ يقُول القومُ من ظُلُمَاتِه سَوَاءٌ بَصِيراتُ العُيون وعُورُها

سواء بصيرات العيون وعورها! لا حولَ ولا قوة إلا بالله. ما الذي أوقعنًا في هذا التِّيهِ المتراكب الظلماتِ. إنَّه التحليل! أليس كذلك؟ ولكن لا، ولا بُدَّ من بيانِ نستطردُ به كما استطرد أسلافنا رحمهم الله. فالتحليل، في الكلام وفي غير الكلام، أمر عسيرٌ يشقّ على الناس، ولا سيما في زماننا. لأنّه يبدأ بانتزاع شيء مجتمع له صورة ومَعْنيّ ، يجزِّئه المحلل أجزاءً دقيقة ، فيصير كل جزء منفردًا على حياله ، ثم ينظر فيه على حياله أيضًا ، ثم يبحث المحلل بعدُ عن الروابط التي تربط كُلُّ جزء بأخيه، ثم عن الروابط الأخرى التي تجعلهُ شيئًا مجتمعًا له صورة ومعنى. وهذا عناءٌ عسرٌ بلا ريب، ولكنه في الحقيقة عناءٌ لذيذٌ ، وعنتٌ مرغوبٌ فيه ، لأنه يُفضى بنا إلى غاية من الرضى والاطمئنان ، وإلى الثقة بوضوح الصورة ، وإلى التثبُّتِ من سَلاَمة المعنى ، وإلى التحقُّق من براءة الروابط من كُلِّ عيب يقدحُ في وضوح الصورة، وفي سَلاَمة المعنى وانتيظامه مجملَ الكلام من أوله إلى آخره. وقد نظنُّ أن تحليلنا هذا الموجز، لم يُفض بنا إلى شيء من ذلك، بل زاد حيرتنا خبالًا. هذا ظاهرُ الأمر، نعم، ولو لجأنا إلى ضروب أخرى من التحليل هي في طبيعتها أعنف وأغمض وأوغَل وأقسى، لزاد الأمر عشرًا وعنتًا فيما أظرُّ، ولكنِّي في الحقيقة مطمئنٌّ إلى أنَّ هذا التحليل الذي زاد حيرتنا ، هو الذي سوف يعيننا على التهدِّي إلى مخرج ينقذنا من هذا التِّيه ومن ظلماته، وينقذ ابن سلام أيضًا معنا، لأنه كان هو قائدنا الذي قذف بنا في ظلماته، وإذا لم نصبر على التحليل في هذه الفقرة الثالثة، فإن مصير المعانى التى ساقها ابن سلام فى رسالة كتابه هذا، سوف تكون أشدَّ تهالكًا واضطرابًا وتنافرًا من هذه الفقرة، التى قلت قبل إن غيابها من طبعة الأعجمى يوسف هِلْ كان ضارًا بفهم كلام ابن سلام وبمقاصده، وأن حضورَها فى طبعتنا كان ضارًا أيضًا فى فهم هذه المعانى والمقاصد. وسأنصرف الآن عن تمام التحليل المجرّد إلى طلب المخرج، ولكن لا تظن أنى سأفارق التحليل بتّة واحدةً لا رجعة فيها، فهذا ليس مذهبى ولا طريقى فى المعرفة والعِلْم، ولكنى سأجتهد أن أنفى ما يُزْعِجُ وما يشقُ وما يجلبُ العنت، بلا مفارقة قاطعة بينى وبين مذهبى وطريقى.

وأعودُ أدْراجي إلى المَطْلب الأول، وهو كشف القِناع عن خامِس الوُجوه الملقَّمة في الفقرة الثالثة من كلام ابن سلام وهو «وجه الشعر»، لأنه هو الذي ألجأنا باستطراده إلى شيء غريب عجيب، وهو أن نعودَ بعد القرون المتتابعة منذ الجاهلية الأولى إلى يومنا هذا، إلى محاولة منكرة في لفظ «الشعر» نلتمس بها تحديد معارف وجهه وملامحه وصورته عند ابن سَلَّامٍ.

ووجه «الشعر» عندنا نحنُ عربَ اليوم، وعند أسلافنا منذ دهورٍ متطاولةٍ ، ومنهم ابن سلام نفسه، وجه معروفٌ لا يتنازع في تبيينه أحدٌ ، هذا أمرٌ مسلّم به فيما أظنٌ . ولفظ «الشعر» في لسان العرب موضوع للدلالة على كل كلام شريف المعنى ، نبيل المبنى ، محكم اللفظ ، يضبطه إيقاعٌ متناسب الأجزاء ، وينتظِمُه نَغَم ظاهرٌ للسّمْعِ ، مفرطُ الإحكام والدقة في تنزيل الألفاظ وجَوْسِ حروفها في مواضعها منه ، لينبَعِث من جميعها لَحْنٌ تتجاوبُ أصداؤه متحدِّرة من ظاهر لفظه ومن باطن معانيه ، وهذا اللحن المتكامِلُ هو الذي نسميه «القصيدة» ، وهذا اللحن المتكامِلُ هو الذي نسميه الأوصال ، تحدّدُه قوافي متشابهة البناء والألوان ، متناسبة المواقِع ، متساوية الأرمان ، هذا هو «الشعر» . والذي يتوخّى هذا الضرب الشريف النبيل المحكم من الكلامِ ، ويأخذه بِحَقّه ، ويَبْذلُه بِحَقّه ، فتصغى إليه الأسماع والألباب مأخوذة بسحره وجماله وجلاله ، هو «الشاعر» . هذه هي بديهة اللغة ، وبديهة مأخوذة بسحره وجماله وجلاله ، هو «الشاعر» . هذه هي بديهة اللغة ، وبديهة

أصحاب اللسان العربيّ قديمه وحديثه، في الأحقاب بعد الأحقاب. والذي يسمع مثلًا ما رواهُ أبو عبد الله البخاريّ في صحيحه، وأبو عبد الله أحمد بن حنبل في مسنده، من حديث أبيّ بن كعب الأنصاريّ، سيّد قراء القرآن، أنّ رسول الله عليه قال: «إنّ من الشِّعْر حكمة». لا يخالجه ارتيابٌ يدعوه إلى طلب حدٍّ أو رسم أو تَصْنيف للفظ «الشعر»، ولا يلتمش له بيانًا سوى هذا البيان الحاضر في كل نفس عربيّة على بديهة اللغة، وعلى البديهة التي توارثها أصحاب اللسان العربي من المحدّثين والقدماء. فهل يرتاب في ذلك أحد؟ أطرّ أنْ لا .

فإذا جاء أبو عبد الله محمد بن سلام الجحمي ، وقد عقد عزمه على أن يؤلِّف كتابًا في « الشعر » و«الشعراء » ، ورأى أن يعرض علينا منهجه في تأليف الكتاب، لم يخالجنا شَكُّ في معنى هذين اللفظين على ما في أنفسنا من بديهة اللغة . وإذا بدا لَهُ أن يبدى لنا عُذْره الذي حمله على جعله كتابًا مختصرًا غير مستوعب لشعر العرب وشعرائها جميعا، فنحن معه نتابعه على هذه البديهة العربية. فإذا ابتدأ كتابه برسالة يذكرُ فيها هذا العذر بكلام مُتَّصِل بلا استطرادٍ يجمع الفقرة الثانية من تقسيمنا نحن للكتاب. إلى أختها التي لا يتمُّ الكلام إلَّا بها فقال : «ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب، وكذلك فرسانُها وساداتُها وأيامُها. فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالمُ ولا يستغنى عن علمه ناظِرٌ في أمر العرب فبدأنا بالشعر، ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام فَنَزُّلناهم منازلهُم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء ...» ، ومضى على ذلك حتى يفرغ من كتابه كله . فنحن معه بلا ريب على بديهة اللغة وبديهة أصحاب اللسان العربي وورثته ، لا يخامرنا شَكُّ في أنه عنى بالشعر، هذا الكلامَ الشريف النبيل الحكم الذي وصفناه، وعنى بالشعراء، هؤلاء العرب الذين أخذوا الشعر بحَقِّهِ وبذلوه بحَقَّهِ . كما قلنا . ولم نحتج نحن

إلى سؤالِه عن معناه عنده ، ولا يرى هو حَاجةً إلى أن يبيّن لنا بيانًا آخر عنهما . أليس كذلك ؟ بلا ريب ، بلى ، وجير ، أيضًا كما يقول امرؤ القيس .

ولكنَّ ابن سلام لم يفعل ذلك، بل فعل ما أشقانا وأشقاه وأشقى كلامَه، وقف يستريح استراحة لينفِّس نفسًا أو نفسين عند آخر قوله: « فبدأنا بالشُّعر » ، وغابَ عنَّا غَيْبةً ، ثم إذا به يأتي من تلك الغيبة منقضًا مسرعًا عجلًا ثائرًا، مخترمًا حديثه عن «الشعر»، مقتحمًا بديهتنا التي كنّا معه عليها، متهجّمًا على بديهة اللغة المتوارّثة، محدثًا فيها صدعًا جائرًا بائنًا وهو يقول: «وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثيرٌ لا خير فيه، ولا حجة في عربية، ولا أدبُّ يستفادُ ، ولا معنى يستخرجُ ولا مثلُّ يضربُ ، ولا مديخُ رائع ، ولا هجاءٌ مقذعٌ ولا فخرّ معجبٌ ولا نسيبٌ مستطرفٌ»، ولولا أنه تعب، فيما أظنُّ، لما كفكفَ من انقضاضه وعجلته وسرعته وثورته شيئًا حتى يستقصى كُلُّ عيب كائن فيما يتحدث عنه ، أيُّ « شعر » ، هذا الذي فيه ما فيه ممَّا وصفَ بعدُ؟ أَهُو «الشعر» الذي تعرفُه بديهة اللغة وبديهة أصحاب اللسانِ العربي، وهو كل كلام شريف المعنى ، نبيل المبنى ، محكم اللفظ ، كما وصفناه آنفًا ، والذي قال فيه علي الشعر حكمة »؟ بلا ريب لا . أهو «الشعر » الذي عقد ابن سلام عزمه على أن يؤلف فيه كتابًا ، فحدثنا عنه إلى أن وقف عند قوله: « فبدأنا بالشعر»؟ بلا ريب لاً ، أيضًا .فإذا كان ذلك صحيحًا ، وهو صحيح بلا ريب ، فما معنى هذا الذى احترم به ابن سلام بديهة اللغة، وصدع به هذه البديهة صدعًا بائنًا بقوله: «وفي الشعر مصنوع مفتعل ...» إلى آخر ما قال؟

وفى بعض الأناةِ خيرٌ إن شاء الله . هذا «الشيء» الذى سلبه ابن سلّام كُلّ فضيلة فقال : «هو مصنوع مفتعل موضوع لا خيرَ فيه ، ولا حجة فى عربية ، ولا أدب يستفادُ ، ولا معنى يستخرجُ ، ولا مثل يضربُ ، ولا مديخ رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر مُعْجب ، ولا نسيبٌ مستطرف » ، ولولا التعبُ لزادَ وبالّغ ، أهذا «الشيء» الذي سلبه كل فضيلة ، وهو كلامٌ بلا ريب ، ممكن أن يدخُل في الكلام الشريف النبيل المحكم ، الذي تُلتمس في بعضِه الحكمة ، يدخُل في الكلام الشريف النبيل المحكم ، الذي تُلتمس في بعضِه الحكمة ،

والذى هو «الشعر»، على بديهة العرب وبديهة لغتهم، ويكون جزءًا منه أو معدودًا فيه أو مسمّى باسمه؟ أظنّه محالًا مفرط الاستحالة، وأنا لا أحبُ أن أستقصى هنا الأسئلة، وأعودُ محلّلًا موغلًا في التحليل مرةً أخرى، فمن أجل ذلك أوجزُ مقالتى ما استطعت. وأنا لا أشكُ أن ابن سلّام لما جاء مقتحمًا متهجمًا على بديهة لفظ «الشعر»، كاد يفلتُ لسانه فيقول: «وفى الشعر، «شعر» مصنوع مفتعل موضوع ...» ولكنه أمسك ورد اللفظ، مستنّكِفًا متقدِّرًا، من تسمية هذا الكلام المسلوب كُلَّ فضيلة «شعرا»، فقال: «وفى الشعر، مصنوع مفتعل موضوع»، لأنه أبى من أن يجعل هذا الشيء المتقدِّر قسيمًا للفظ «الشعر» الشريف النبيل المحكم، أو نظيرا له، أو بعضا منه، وعَجِل، فلم يغيِّر ما ابتدأ به، وأفاض في سلب الفضائل عمّا تقدَّره من الكلام.

والدليل على هذا الذى أقول قائم حاضر فى كلام ابن سلام نفسه فيما بعد ذلك بقليل، ومأخوذ عنه، فإنه لما فرغ من هذه الفقرة الثالثة، وعقّب عليها بحديث يتصل ببعضها اتصالًا وثيقًا، بدأ فى الفقرة السابعة يدلنا على أسباب ثورته وعجلته، فقال، وتأنَّ عند كُلِّ لفظ من قوله: «وكان مِمَّنْ أفسد الشِّعر وهجَّنهُ، وحَمَل كُلَّ غُثاءٍ مِنْه: محمد بن إسحق بن يسار مولى آل مخرمة... وكان من علماء الناس بالسير = قال الزهرى: لا يزالُ فى الناس علم ما بقى مولى آلِ مخرمة. وكان أكثر علمه بالمغازى والسير وغير ذلك، فقبل الناسُ عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لى بالشعر، أتينا به فأحملُه. ولم يكن ذلك له عذرًا. فكتب فى السير أشعارَ الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قطّ، وأشعار النساء فضلًا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عادٍ وثمود، فكتب لهم أشعارًا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مُؤلَّفٌ معقود بقوافِ». هذه واحدة.

ثم إنه قال في آخر الفقرة الثانية عشرة ، بعد أن فرغَ من استطراده فقال : «ونحن لا نجد لأوّلية العرب المعروفين شِعْرًا ، فكيف بعادٍ وثمودٍ ؟ فهذا الكلام

الواهنُ الحبيثُ، ولم يَرْوِ قطُّ عربيٌ منها بيتًا واحدًا، ولا راويةٌ للشعر، مع ضعف أسره وقلة طُلاوته»، هذه ثانية.

ثم عقّب على ذلك بالفقرة الثالثة عشرة ، التى ختم بها هذا الجزء من استطراده المقتحم ، ما بين الفقرة الثانية والفقرة الحادية والثلاثين ، فقال الجملة المشهورة التى زلَّ عليها من زلَّ من المشكّكين فى الشعر الجاهلى ، وهى قوله : «وقال أبو عمرو بن العلاء فى ذلك : ما لسان حميرَ وأقاصى اليمن اليوم ، بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا ، فكيف بما على عهد عاد وثمود ، مع تداعيه ووهيه ، فلو كانَ الشّعر مثلَ ما وُضِع لابن إسحق ، ومثل ما روى الصُحُفيُون ، ما كانت إليه حاجة ، ولا فيه دليلٌ على عِلْم » هذه ثالثة .

ثم لما فرغ ابن سلام من استطراده بعد الفقرة الثلاثين، ودخل في تتمة عرض كتابه منذ الفقرة الحادية والثلاثين، ذكر دليله على ذهاب شعر الجاهلية وسقوطه (أي ضياعه ونسيانه فسقط من ذاكرة العرب) فقال في الفقرة الرابعة والثلاثين: «ومما يدُل على ذهاب الشعر وسُقُوطه، قلةُ ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد، اللذين صحَّ لهما قصائدُ بقدرٍ عشر، وإن لم يكن لهما غيرهُنَّ، فليس موضعُهما حيثُ وُضِعا من الشهرة والتقدِمة. وإن كان ما يُروَى من الغُثاءِ لهما، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة» فهذه ما يُروَى من الغُثاءِ لهما، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة» فهذه رابعة.

وهذه الأربعة فيها تمام نعت «الشيء» الذي تقذَّرت بديهته العربية أن تسميه شعرًا، فأسقط الموصوف من عبارته واستبقى الصفة، فقال: «وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثيرٌ لا خير فيه، ولا حجَّة في عربية، ولا أدبّ يستفاذ، ....»، إلى آخر النعوت التي سلبته وعرّتْه من كُلِّ فضيلة حتى بدت سوأتُه. وتمامُ هذه النَّعوت المعرِّية، أنه «الغثاء»، و«الكلام الواهنُ الخبيث»، «مع ضعف أسره وقلَّة طُلاوته، و«مع تداعيه ووَهْيه»، و «لم يروِ قطَّ عربيً منه بيتًا واحدًا ولا راوية للشعر»، و «لو كان الشعر مثلَ هذا الذي وُضِع لابن إسحق، ومثلَ ما رَوَى الصحفيون، ماكانت إليه حاجة، ولا فيه دليل على

علم، ثم نفاه نفيًا من طريقه فقال: «وهو ليس بشعرٍ، إنما هو كلامٌ مؤلفٌ معقودٌ بقوافٍ».

وإذن، فابْن سلام يستنكف أن يكون هذا الكلام الواهن الخبيث المصنوع المفتعل ضريعًا للشعر، أو قسيمًا له يشاركه في الاسم، أو نظيرًا له وإن باينه في الصفة، أو جزءًا منه يفارقه في الجودة أو الرداءة، أو معدودًا مَعه يقع تحت الطرف البعيد من أقاصي ظِلّه، فنفاه نفيًا، ولم يُطِقْ إلّا أن يسمّيه، لخبثه ووهيه ووهنه، «كلامًا مؤلفًا» قد عُقِدت أواخره بقافية! وحين احتاج إلى الإشارة إليه في سائر كلامه، وفي أكثر من عشرة مواضع، لجأ إلى الحيلة في العبارة عنه، تقرُّزًا من أن يختلط هذا الغناء الخبيث، بالكلام الشريف النبيل المحكم، معدن الحكمة، وهو «الشعر»، فهجر هذا اللفظ المفرد، ولجأ إلى الجمع وهو «الأشعار»، فأطلقه عليه حيث وقع من كلامه، لأنّ اللغة استعصت عليه أن يجد له فيها وسمًا يسمئه به، أو لفظًا يدلُّ عليه، ولأنّ هذا الغثاء الخبيث مطروح على وزن الشعر معقودٌ بمثل قوافيه، ولأنّ بعضه ينسب إلى من تعرف من الشعراء، أو إلى ناس تكذّب واضعوه عليهم فأقحموهم مع الشعراء، في شيء، لا قليل ولا كثير.

وإذنْ ، فابن سلام حين انتهى عند قوله: « فبدأنا بالشعر » ، وسكت يستريخ ، ثم جاء بغتةً منقضًا ثائرًا متقحّما عجلًا مندفعًا يقول: « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه » ، قد اخترم بديهة اللغة ، وبديهة سامعيه ، وبديهة نفسه هو ، وصدع البديهة صدعًا بائنًا جائرًا ، وكان في عجلته وتسرُعه الزَّلُ والخطأ في التعبير ، وصارَ ظاهرُ لفظهِ الذي سبق لسانهُ أناتَهُ وفِحْرَه ، يُوهِم من قُربٍ أن الكلام الشريف النبيلَ المحكم معدِنَ الحكمة ، الذي تتفجّر ينابيعه على ألسنة الشعراء عبيد « الشعر » ، وذلك الغثاء الخبيث الواهن المؤلف المطروح على عقد القوافي ، والذي لا يُعرف لَهُ أَبُّ ولا صاحبٌ = كلاهما يقع عليه لفظ « الشعر » المعروف ببديهة اللغة وقوعًا واحدًا = وأن هذا الخبيث قسيم ذلك الشريف في دلالة اللفظ! .

ومِنْ جرَّاء هذا الإيهام القريب الظاهر قلت في فاتحة تحليلي السالف: «إنَّ أيسر النظر والتأمُّل، دالُّ على أن في أيدينًا قسمةً واضحةً، تجعل الشعر قسمين: أحدهما ظاهر في صريح لفظه، وهو الشعر المصنوع المفتعل الموضوع، وآخر محدثٌ مضمرٌ يخرج بدلالة المخالفة، وهو «الشعر غير المصنوع»، وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد تبيَّنَ الآن أن هذا قـولٌ باطـل أشد البطلان عندنا ـ وعند ابن سلام نفسه = وأنّ الذي في أيدينا إنما هو وهمّ فاسدٌ = وأن ليس في أيدينا قسمةٌ واضحة أو غير واضحة ، وأنْ ليس في أيدينا ظاهرٌ يقال له «شعر مصنوع»، بل غثاة خبيث معقود بقواف، وأن ليس في أيدينا مُضْمرٌ يخرج بدلالة المخالفة يقال له «شعر غير مصنوع»، لأنّ لفظ «شعر» جار أبدًا على بديهة اللغة وبديهة ورثتها، لا يحتاجُ إلى صفة تُبين عنه، أو نعتٍ يميّزه من غيره. وإذن فقد بطلت القسمة، وهلك التقسيم الفاسد، وبقى لفظ «الشعر» في قول ابن سلام: «وفي الشعر مصنوع»، جاريًا على بديهته ونقائه وشرفه ونبله، مبرَّأً من كُلِّ حاجةٍ إلى بيانٍ يَرْفع من خَسِيسَته، لأنه بائن من كل كلام بشرفه ونبالته. وآخر عُذْر لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي أنَّـه عجلَ ، فزلٌ ، فأخطأ ، فأضلَّنا خطؤه عن مراده . ولكن هل من سبيل إلى معرفة السِرّ الذي قاده إلى هذا الزلل، وإلى تبيُّن الصواب الذي ينفِي هذا الخطأ، وإلى المخرج من التِّيه المتراكب الظلماتِ الذي أوقعتنا فيه هذه الفقرة الثالثة المحيِّرة، في فاتحة رسالة «طبقات فحول الشعراء»؟ فأقول: نعم! ونُعَامَى

\* \* \*

ويبدو أن الحيرة التي رافقتنا بما أحدثته الفقرة الثالثة ، فعالجت أمرها حتى كدت أَفْلَتُ منها ولمّا ، عادت تحاصرني الآن بأسباب من قِبَل نفسي! بأيّهما أبدأ ، أبالبحث عن سِرّ ما أوقع ابن سلام في الزَّلل ، أم بتبيَّن الخطأ في عبارته ، وتصحيح سياقها ؟ وسياقُ ما كُنّا فيه آنفًا يتطلب أن أبدأ بثانيهما ، ليكون سياقًا واحدًا ، بعد أن ثبتَ أنه محالٌ أن يكون بناء الفقرة الثالثة مقصورًا على الغثاء

المصنوع المفتعل الموضوع وحده ، وأشدُّ منه استحالةً أن يكون لفظُ « الشعر » في ، عبارة أبن سلام واقعًا على هذا الغثاء الخبيث مشتملًا عليه، فيكون بعضًا منه، أو داخلًا في بدِّيهته . ولكنِّي تأمَّلتُ ، وجدت أن ما في صدري في الحديث إذا أنا تابعت السياق مضطربٌ غير قابل للبيان ، أو على الأصح وجدتني محبوسا عن هذا البيان. وأنا كثير الترداد؛ لما قرأته قديمًا من كلمة لإمامنا محمد بن إدريس الشافعي، بلغ بها أقصى غوامض النفس الإنسانية التي علَّمها الله البيانَ بقدرته وعزَّته ، وفوّض إليها الجهاد في بلوغ ما تريدُ منه . وذلك أن الإمام يونس ابن عبد الأعلى الصدفيّ المصري، وهو من أصحاب الشافعي، وكان ركنًا من أركان الإسلام في زمانه (١٧٠- ٢٦٤ هـ) سأل الشافعي يومًا عن مسألة، فقال له : « يا يونس ، إنَّى لأجدُ بيانها في قلبي ، ولكن لا ينطلقُ به لساني » . ما أروعَها كلمة! وكل ناطق بلسان أو كاتب بقلم، يجد ذلك في نفسه وجدانًا ظاهرًا، إذا أخذ البيانَ بحقّه، وحَرَص على إجادته. وأنا أجد هذا في نفسي الآن، وأنا أحاولُ أن أسوق الحديث على وجهه من التعانق والتواصل، وأجدهُ عسيرًا أن أُبِين عن جميع ما فيها ، لأن بعض هذا الحديث يخلجُني ويشدُّني شدًّا إلى الحديث عن سرّ ما أوقع ابن سلام في الزلل، لأنهما في الحقيقة مترابطان. فجعلت أميِّل الرأي بين الأمرين حائرًا حتى كاد يضيع وقتى في الحيرة . وبعد لأي عزمتُ على أن أبدأ بأولهما كما وقع اتفاقًا في ترتيب الأسئلة ، مهما يكن في ذلك من انقطاع حديثي عن الفقرة الثالثة.

وُلِد أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحيّ بالبصرة سنة ١٣٩، وقضى بها أكثر عُمره، ثم بدا له فانتقل إلى بغداد سنة ٢٢٢، وهو في الثانية والثمانين من عمره، وأقام بها حتى توفى في سنة ٢٣١، وقد بلغ الثانية والتسعين. وقد بلغ ابن سلام مرتبة الإمامة في علم الشعر والأخبار، حتى قال الرياشيّ عنه: «أحاديث محمد بن سلام عندنا (يعنى عند أهل العلم والرواية الصحيحة) مثل حديث أيوب، عن محمد، عن أبي هريرة»، يعنى حديث أيوب بن أبي تميمة السَّختياني، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رضى الله عنه، في الصحة

والسلامة والقوة ، ومع ذلك لم يقع في أيدينا من كتب ابن سلام سوى كتاب «طبقات فحول الشعراء» ، وقد دلت رسالة هذا الكتاب الذي أفرده للشعر ، على أنّه سوف يتبعه بكتاب أو كتب عن «أشراف العرب وساداتها وفرسانها وأيامها» . وفي فهرس النديم أن له كتابًا سماه «بيوتات العرب» ، لم يصل إلينا منه شيء ، وظنّى أنه كتابٌ عن «أشراف العرب وساداتها وما لهم من شعر » . ودلنّا أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني على كتاب آخر هو كتاب «الفرسان» أو «فرسان الشعراء» ، لم يصل إلينا نصًا ، ولكنه كان عند أبي الفرج ، تلقّاه مكتوبًا من أبي خليفة الفضل بن الحباب الحُمحيّ ، ابن أحت ابن الفرج ، تلقّاه مكتوبًا من أبي خليفة الفضل بن الحباب الحُمحيّ ، ابن أحت ابن سلام . وظاهر كلام ابن سلام في رسالة الطبقات ، أنه ألف كتاب «الفرسان» ، وكتاب «بيوتات العرب» ، بعد تأليفه كتاب الطبقات . فمتى ألَّفَ هذه الكتب الثلاثة ؟ وأولهنَّ خاصةً ؟

وترجمة ابن سلام في كتب تراجم الرجال والعلماء والأدباء، مختصرة موجزة لا تكاد تشفى، وقلما يذكر مؤلفوها زمان تأليف العلماء كتبهم، فنحن نعتمد فى ذلك على الاستظهار لا غير، وأنا فى خلال تتبعى للكتب التى التمس فيها نقلًا من كتاب «طبقات فحول الشعراء»، لم أجد خبرًا عن ابن سلام يطابق نصه نص ما في كتاب «الطبقات»، إلّا وهو مروى من طريق ابن أخته الحافظ مسند عصره أبى خليفة الفضل بن الحباب الجمحى. فاستظهرتُ من ذلك أن ابن سلام لم يقرأ كتابه على أحدٍ، ولم يروه عنه سماعًا وحفظًا مسوى ابن أخته أبى خليفة الجمحى، وكان في آخر عمره ضريرًا ذاهب البصر. واستظهرتُ أيضًا أن كتاب الطبقات وكتاب الفرسان، وكتاب بيوتات العرب، لم يذع أمرها في حياة ابن سلام، ولم تكنْ عند أحدٍ منها نسخةٌ. واستظهرتُ أيضًا أن كتاب الطبقات، كان عند أهلِه ببغداد عند وفاته سنة ٢٣١، ثم آلت إلى أبى خليفة ونقلت إلى البصرة بعد زمانٍ من وفاته، وأنّ أبا خليفة لم يُخرِجْ كتب خاله إلى خليفة ونقلت إلى البصرة بعد زمانٍ من وفاته، وأنّ أبا خليفة لم يُخرِجْ كتب خاله إلى الناس إلا بعد دهر طويل، فقرأها عليهم وأخذوها عنه.

ودليل ذلك أن عندنا اليوم نسختين عتيقتين من كتاب «طبقات فحول الشعراء»، أقدمهن نسختي التي نشرتها، والأخرى نسخة المدينة شرّفها الله

وصلى الله على صاحبها صلاةً طيبةً وسلَّم، وهي على النِّصف من نسختى، لأن صاحبها اختصرها اختصارًا شديدًا. ولهاتين النسختين ثلاثة أسانيد عن أبى خليفة: إسنادان في نسختى، وإسنادُ نسخة المدينة.

والإسناد الأول: رواية أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أُسيد الأصفهاني (المتوفى سنة ٣٣٦) عن القاضى أبى خليفة الجمحيّ. وأبو خليفة ولى قضاء البصرة في سنة ٣٩٦، وابن أُسيد الذي سمعها منه، رحل من أصفهان إلى بغداد، ومرَّ في رحلته بالبصرة، فسمع من أبي خليفة، وذلك قبيل وفاة أبى خليفة سنة ٥٠٥، فبين هذين التاريخين قرأ على القاضى كتاب الطبقات. (٣٠٥ – ٣٠٥) على أكثر تقدير.

والإسناد الثاني: رواية أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ( ٢٦٠ وتوفي سنة ٣٦٠) عن القاضي أبي خليفة أيضًا، والطبراني نزل أصفهان واستوطنها ستين سنة إلى أن توفي، وذلك في سنة ٣٠٠. وإذن، فهو قد قرأها على القاضي أبي خليفة ما بين سنة ٢٩٣ وسنة ٣٠٠.

والإسناد الثالث: رواية أبى طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن بحير الذهلى القاضى، عن أبى خليفة. وأبو طاهر ولد سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٣٦٧ بمصر، وانتقل إلى بغداد فى خلال ذلك وولى قضاءها سنة ٣٢٩. وظاهر من تأخر ميلاده إلى سنة ٢٧٩، يدلُّ على (١) أنه قرأ على أبى خليفة هو أيضًا قبل سنة ٣٠٠ بقليل، أى فى نفس الوقت الذى قرأها على الناس أبو خليفة، وسمعها منه ابن أسيد والطبرانيُّ.

وفُقدانُنا روايةً عن كتاب الطبقات أو نقلًا عنه ، إلَّا من طريق أبي خليفة وحده ، ودِلالة الأسانيد الثلاثة السالفة الدالة على أن القاضى أبا خليفة قرأ الكتاب على الناس بالبصرة ما بين سنة ٢٩٥ وسنة ٣٠٠، يوقفنا على مثل اليقين بأن كتب ابن سلام الثلاثة ، وكتاب الطبقات خاصة ، لم يذع ذكره في

<sup>(</sup>١) هكذا جاء بخط شيخنا، ولعل الصواب إسقاط «يدلٌ على» فيكون سياق الكلام: «وظاهرٌ من تأخر ميلاده.. أنه قرأ.. [محمود الطناحي].

الناس إلا بعد وفاة ابن سلام سنة ٢٣١، بأكثر من خمس وستين سنة. ويزيدنى ثقة بهذا الاستظهار أن أبا الفرج الأصفهانى المولود بأصبهان سنة ٢٨٤ (وتوفى سنة ٣٥٦) والذى نشأ فيها، ثم هاجر بعد إلى بغداد سمع بكتب ابن سلام، فأرسل إلى القاضى أبى خليفة يستجيزه ويسأله أن يرسل إليه نسخة من كُلَّ كتاب من كتب ابن سلام، فكتب إليه بها وأجازه، كما هو ظاهر من أسانيده في كتاب الأغاني إلى كتاب الطبقات، التي جمعتها في مقدمة الكتاب. وأشبه باليقين أن يكون ذلك كان، وأبو الفرج بأصبهان في حدود السادسة عشرة من عمره سنة ٢٠٠٠ أيضًا، أى قبل أن يعود ابن أسيد إلى أصبهان بعد وفاة والده سنة ٢٠٠، وقبل أن يستوطن الطبراني أصبهان في سنة ٢٠٠٠هم، وإلا لكان في غني عن الكتاب إلى أبى خليفة يستجيزه ولأخذ الكتاب عن أحدهما، بلا مؤونة عليه في ذلك.

وأنا أظرُّ ظنّا، أن أبا خليفة كان قد لحق بخاله حتى رحل إلى بغداد سنة ٢٢٢، وبقى معه قليلا وهو يؤلف هذه الكتب، وقرأها عليه، ثم رحل عنها بعد وفاته سنة ٢٣١، وشُغِل بطلب العلم وروايته، ثم عاد إلى البصرة لا يحمل معه شيئًا من الكتب إلّا ما سمع من خاله لأنه كان ضريرًا كما قلت، ولكنى لا أحقق هذا الظنَّ لأسباب كثيرة وبقيت كتب ابن سلام خالِه عند أهله ببغداد، ثم مضى دهرٌ طويلٌ جدًّا، فنقلت هذه الكتب إلى البصرة بعد ولاية أبى خليفة القضاء سنة ٣٩٢، وعندئذ قعد أبو خليفة للإقراء، وأجلس قارئًا يقرأ كتب ابن سلام، ولذلك جاء في إسناد ابن أسيد والطبراني كليهما: «قرىء على القاضى أبى خليفة، وأنا أسمعُ »، فهذا أوَّل ذيوع خبر كتاب «طبقات فحول الشعراء» وغيره من كتب ابن سلام ما بين سنة ٩٢، إلى سنة ٣٠٠، حين نقلت كتبه من بغداد إلى البصرة، والله أعلم ولكنى أستظهر.

أما متى ألَّفَ ابن سلام كتبه هذه ؟ فنحن على يقين أنه لم يؤلفها فى صَدْر حياته ، ولا فى أوسطها ، ولكنه ألفَّهَا بأُخَرة . ودليل ذلك أنّ أبا الطيب على بن عبد الواحد الحلبى اللغوى (المتوفى ٥٥١) حدثنا فى كتابه «مراتب النحويين» عن الحسين بن صالح ، عن أبى خليفة الفضل بن الحباب الجُمحى قال : كان

الرّياشي (وهو العباس بن الفرج، المتوفى سنة ٢٥٧) يختلف إلى أبي عبد الله (يعنى ابن سلام)، ليستعير منه كتابه في الطبقات، فكنت أخرج له منه جزءًا جزءًا. فقيل للرياشي في ذلك فقال: لو عاش يومين لسمعته منه». والرياشي بصريّ، وابن سلام بَصْرى رحل عن البصرة سنة ٢٢٢ هـ، إلى بغداد، وكانت وفاته بها = فلو كان ابن سلام ألف الكتاب وإخوته، وهو بالبصرة، لعرف ذلك الرياشيّ، ولم يؤجل ذلك إلى أن يصيرَ ابن سلام في بغداد سنة ١٣٣، فيزوره ليأخذ منه جزءًا جزءًا. ونستظهر من هذا الخبر أيضًا أن ابن سلام كان قد غزم كان قد فرغ قبل قليل جدًّا من وفاته، من تأليف هذه الكتب، وأنه كان قد عزم على إقرائها للناس، ولكن المئيّة فاتتهم به، فلم يسمعوا منه شيئًا، ولم يسمع منه سوى ابن أخته أبي خليفة وحده، لأنه كان يومئذ معه ببغداد.

وبين أيدينًا خبرٌ آخر يدلُّ على أن ابن سلام كان في آخر حياته، قد أهمّه أمرُ شعر العرب وشعرائها وأخبارها؛ وأنه رأىً أنَّه قد قضى عُمره كُلُّه في السماع من العلماء على اختلاف علومهم، من نحو ولغة وشعر وحديث وأخبار، حتَّى بلغ إمامة العلم في بعض ذلك، وأخذ الناس عنه فأكثروا وأكثر، حتى بلغ الثانية والثمانين من عمره، وبدأ لهُ أن يرحَـل إلى بغداد، كما رحل كثير من علماء البصرة، فيحدثنا الخطيب البغدادي، عن الحسين بن فهم، (وهو صاحب محمد بن سعد كاتب الواقدي، وصاحب الطبقات الكبير) (ولد الحسين بن فهم سنة ٢١١، وتوفي سنة ٢٨٩)، وهو أيضًا أحد أصحاب ابن سلام والرواة عنه)، فيقول الحسين بن فهم: «قدم علينا (أى قدم عليهم ببغداد) سنة اثنتين وعشرين ومئتين، فاعتَلَّ علةً شديدةً، فما تخلُّف عنه أحدُّ، وأهدى إليه الأجلَّاءُ أطبَّاءَهم، وكان ابن ماسَوَيْه الطبيب ممَن أهدى إليه (يوحنا بن ماسويه طبيب الخلفاء، وكان يومئذ طبيب المعتصم، توفي سنة ٢٤٣)، فلما جسَّهُ ونظر إليه قال: ما أرى من العلَّة كما أرى من الجزع!! فقال ابن سلام: والله ما ذاك لحرص على الدنيا مع اثنتين وثمانين سنة، ولكنَّ ا الإنسان في غَفْلَةِ حتى يُوقَظَ بعلَّةٍ . ولو وقفت بعرفاتٍ وقفة ، وزرتُ قبر رسول الله ﷺ زورة، وقَضَيتُ أشياء في نَفْسِي، لرأيتَ ما اشتدَّ علي من هذا قد سَهُل. فقال له ابن ماسویه: فلا تجزع، فقد رأیتُ فی عِرْقك من الحرارة الغریزیّة وقُوِّتِها، ما إن سَلَّمك الله من العوارض، بلّغك عشر سنین أخرى، قال الحسین بن فهم: فوافق كلامُه قدرًا، فعاش محمد بن سلام عشر سنین بعد ذلك، ومات سنة اثنتین وثلاثین ومئتین».

فقول ابن سلام رحمه الله: « ولكن الإنسان في غفلةٍ حتى يُوقَظَ بعلة » ، وقوله: «لو وقفت بعرفات وقفة، وزرت قبر رسول الله ﷺ زورةً، وقضيت أشياءَ في نفسي ، لرأيتَ ما اشتَدَّ على من هذا قد سَهُل » ، يدلُّ على أنَّ هذه العلة الشديدة قد أهبَّتْهُ من غفلة عن أشياء كانت في نفسه ، ويتمنَّى أن يكتب الله له لو أن يقف حيث يُسْتَجَابِ الدعاءُ، فيسأل ربّه أن ييسِّر له قضاءَها والفُروغَ منها وتقرَّ عينُه، فلا يأخذه من أمر هذه الدنيا جَزَع. وأكبر ظني أن هذه الأَشياء التي كان يتمنَّى قضاءها هي تأليف كُتُب جامعة ، كان يحبُّ أن يتعجُّل كتابتها ، بعد أن قضى اثنتين وثمانين سنة لِم يؤلف كتابًا ، ولا يبقى من علمه عند الناس إلَّا الشيء من الأحاديث التي أَثرت عنه، والأخيارُ سماعًا ورواية . والكتابةُ قيد العلم ووعاؤه . فلمّا أَبَلُّ من علته قليلًا أجمع رأيَه على أن يعد منهجه لكتبه التي كان يحبُّ أن يؤلفها ، بعد دهر طويل جدًّا من انتياب خواطر تُلِمُ ساعات ثم تذهبُ غير محقَّقةٍ ولا مثبتة في كتابٍ . ففي المدّة التي قضاها بين سنة ٢٢٢ هـ وسنة ٢٣١، بدأ كتابه في الشعر، وهو كتاب الطبقات، ثم كتاب شعراء الفرسان، ثم كتاب سادات العرب وأشرافها وما قالوا من شعر، ثم كتاب أيام العرب، وغير ذلك مما وصل إلينا خبرٌ عنه أولم يصل. ثم اخترمتْهُ المنَيّة هو وأخوه المحدّث المشهور «عبد الرحمن بن سلَّام الجمحيّ » سنة ٢٣١، وبقى كُل ما كتبه من كتب عند أهله ببغداد، حتى رحلوا إلى البصرة عائدين ، أو حتى حملوها إلى ابن أحته أبي خليفة قاضي البصرة، فآلت إليه وصارت في حورته، فيما أرجح، بعد توليه قضاء البصرة في سنة ٣٩٣هـ. والله أعلم أيّ ذلك كان؟ وعرفها الناس من يومئذٍ.

بَقِى أَبُو عبد الله محمد بن سلام الجمحى بالبصرة ، عُـمْرًا طويلًا حتى بلغ الثانية والثمانين من عمره ، وصارت إليه إمامة الأدب والرواية والعلم وأحبار

العرب، إلى فنون أُخرَى كان يُحْسِنها ويَرُويها ويأخذها الناسُ عنه، أجيالًا بعد أجيال من العلماء والأدباء، لأنه كان من قدماء أهل العلم والرواية، وطارت شهرتُه في الآفاق، ثم بدا له أن يرحل من البصرة إلى بغداد، كما رحل كثير من علماء البصرة مِن قبله، فرحل في سنة ٢٢٢ هـ، فلمّا نزل بغداد لقي الحفاوة كلها من الخليفة المعتصم، ومن علماء الناس صغيرهم وكبيرهم، ومن الأشرَاف والسادات، وقصَده طُلَّاب العلم والرواية في كُلِّ فنِّ، وداروا به وسألوه وسمعوا منه. ولقد ألِفَ ابن سلام الشيخ مثل هذه الحفاوة وهو بدار نشأته في البصرة، أما في بغداد، وهو حديثُ عَهْدٍ باغتراب عن وطنه دار نشأته، فإن هذه الحفاوة قد هَزَّته وأَسْعَدَتْه، وأَشعرت قلبه لذَّة الفَرَح بما لَقِي من إكرام وإلطافٍ ، ولما يكَدْ حتى بَطَشتْ به علةٌ شديدةٌ شرَّدت ما وجده في نفسه منَّ السعادة بهذه الحفاوة ، وجزعَ مَنْ حوله من أهله ومن طلبة العلم مخافةً عليه لعلق سنه، وجزع هو، ورأى أن ما انفسح له من الأمَل الذي أمَّله بالرّحلة إلى بغداد ، دار العلم يومئذ ، قد ضاقَ ، فلمّا مُضَتْ عنه شدَّة العلَّة واطمأن قلبُه قليلًا ، وعاده أهل العلم والرواية يحفُّونَ به ويسألونه ، وعاودَه أملٌ تقادَمَ عَـهْدُه أن يؤلف للناس كتبًا تبقى في أيديهم من بعده. وأوّل كتاب «طبقات فحول الشعراء»، دالَّ على أن الذي وصفت، أو قريبًا منه، قد كان كما وصفتُ، فإنه بدأ الكتاب هكذا: «ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ... "، فكأنَّ أهل العلم يومئذ قد ذاكروه وذاكرهم، ولعلُّه أفضى إليهم بما في نفسه كما قال في حديثه مع ابن ماسويه الطبيب « وقضيت أشياء في نفسي » ، يعني تأليف كتب تبقى في أيدى الناس ، فسأله أصحابه من أهل العلم أن يفعل فاستجابَ لهُمْ . وكانت العلة الموقظة بعدَ الثانية والثمانين، حافرًا له على العجلة في قضاء ما في نفسه، وفي الوفاء بما وَعَد. ولكن يظهر أن هذه العلَّة قد تراخت به ، تنتابه زمنًا بعد زمن ، توشك أن تقطعه عن قضاء ذلك، وبدأ يكتبُ كتبه بأخَرةٍ، وهو يسابقُ الأيام مخافةَ أن تسبقه ، غير مُغْترٌ بمقالة ابن ماسويه الطبيب : «قد رأيتُ في عرقك من الحرارة الغريزية وقُوَّتها، ما إن سلّمك الله من العوارض، بلّغك عشر سنين أخرى»، وكيف يغتر ، وأخواتُ الثمانين أشدُّ إيقاظًا من الغفلة من بطش هذه العلة؟ ولكن يظهرُ أن العلّة كانت تنتابُه وتقطعُه، فلم يستطع أن يفرغ من تأليف كتبه، إلّا وقد دنا الأجلُ من وراء الحجب يشقُّها إليه، ففرغ ولمَّا يَكُدْ، لما دلنا على ذلك خبر أبى خليفة عن الرياشيِّ حيث قال: «لو عاش يومين لسمعتُه منه»، يعنى كتاب الطبقات، كما سلف.

وهذه العجلة التي استظهرتُها ووصفتُها بيِّنةٌ في مواضع من كتابه «طبقات فحول الشعراء» التي سلمت وبقيت في أيدينا من كتبه ، فقد وجدتُ فيه أشياء قد سقطت عَنْه أو منه ، وهو في هذه العجلة من أمره ، وأنه في هذه العجلة من أمره زاد أشياء لا ذكر لها في عرض كتابه ، ومثال ذلك : أن ابن سلام في رسالة كتابه قال : «فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرًا ، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط كُلُ طبقة متكافئين معتدلين » يعنى عشر طبقات من أهل الجاهلية ، وعشر طبقات من أهل الإسلام . فهؤلاء ثمانُون شاعرًا . هذا ما قصده ابن سلام حين بدأ كتابَه ، ولكنه لَم يَكَدُ يفرُغ من أمر شعراء الجاهلية ، حتى بدا له أن يقحم بين الأربعين من شعراء الجاهلية ، حتى بدا له أن يقحم بين الأربعين من شعراء الجاهلية ، وكان حق ما حدّده أن يقول بعده : عرض كتابه ، كما حدّده حين بدأ تأليف كتابه ، فقال في آخر طبقات الجاهلية : وكان حق ما حدّده أن يقول بعده :

«طبقات الإسلام: كل طبقة أربعة رهط متكافئين معتدلين = الطبقة الأولى » كما هو نص عنوانه في أول طبقات الإسلام، ولكنه لم يفعل ذلك، فإنه حين فرغ من الجاهلية فقال: «انقضى خبر العَشْر الطبقات»، اخترم سياق كتابه كما عرضه فابتدأ قائلًا:

«وصيَّرنا أصحاب المراثى طبقةً بعد العشر الطبقات» ومضى فى ذكر أصحاب المراثى.

فأتى بجديد، ثم مضى غير مبالِ باقتحام هذا الموضع فيما حدّده في أول

كتابه، فابتدأ في ذكر «شعراء القرى العربية»، فذكر شعراء المدينة، ثم شعراء مكة، ثم شعراء الطائف، ثم شعراء البحرين، ثم شعراء يهود، وانتهى هذا الاقتحام، وبدأ في تمام ما كان حدّده في رسالة كتابه. وهذا في ترقيم نسختنا من رقم: ٢٦٧ إلى آخر رقم: ٣٨٦ (ص ٣٠٣- ٢٩٦) وهو استطراد طويل كما ترى، وسار فيه على غير نهجه في جعل كُلِّ طبقة أربعة شعراء، فجعل «طبقة أصحاب المرائي»، أربعة، وشعراء المدينة حمسة، وشعراء مكة تسعة، وشعراء الطائف خمسة، وشعراء البحرين ثلاثة، وشعراء يهود ثمانية، فهؤلاء أربعة وثلاثون شاعرًا، زادهم على الثمانين، على ما رسمه وبينه في أول كتابه.

ومع ذلك، ففي هذا الاستطراد المقحم على نهج الكتاب، إخلالٌ شديدٌ بطريقته التي سار عليها في ذكر طبقات شعراء الجاهلية الأربعين، وطبقات شعراء الإسلام الأربعين، من وجوه كثيرة سوى عدد الشعراء الأربعة في كل طبقة ذكرها. وهذا عندى دالٌ على أن ابن سلام رحمه الله قد أقحم هذا القدر كُلُّه من الشعراء، بعد أن فرغَ من النسخة الأولى من كتابه، والتي كانت مقصورة على ما نهجه في رسالة كتابه، من ذكر طبقات عشر لفحول الجاهلية ، وطبقات عشر لفحول الإسلام .فلما عادَ إلى كتابة الكتاب على الوجه الذي بيَّنه أقْحم هؤلاء الشعراء إقحامًا في النسخة الآخرة (وهي التي في أيدينا اليوم) ونسي أن يُغيِّر ما كتبه في رسالة كتابه، وكان قد أسنَّ وقارب التسعين أو جاوزها ، وأقحم أشياء أخرى سنعود إلى ذكرها بعد قليل . وثمّا يدلُّ على أنه كان ينسى ، وأن المرض كانَ يقطع عليه ما يكتب أنّه في هذا الجزء الذي أقحمه ، لم يقتصر على تغيير منهجه في ذكر أربعة شعراء في كُلِّ طبقة ، فزاد العدد أو نقصه، ليس هذا فحسب، بل إنه وقع في شيء آخر يدلُّ على أثر المرض في تقديره وضبطه، كان ملتزمًا بأن يذكر في أول كُلِّ طبقة أسماء شعراًء هذه الطبقة الأربعة، فكان هنا في هذا الجزء المقحم ملتزمًا أيضًا بذكر أسماء شعراء كُلِّ قسم في أوّل كلامه، فذكر في شعراء مكة تسعةً، نسى أن يذكر لاثنين منهما بعد ذلك خبرًا أو شعرًا، وهما مسافر بن أبي عمرو، والممزق عبد الله بن حذافة السهمى، مع خطأ غريب فى اسمه، ذكرته فى تعليقى على الكتاب = ثم فى شعراء الطائف ذكر حمسة شعراء، ولكنه سقط عنه كنانة بن عبد ياليل، فلم يذكر له بعد ذلك أيضًا خبرًا ولا شعرًا، هذا مع قلة الأخبار عن كل شاعر منهم ذكره، وقلة ما ذكر له من الشعر، فإنه كان خليقًا أن لا ينسى إذنْ. فمن أجل ذلك كله رأيت أن ابن سلام كان يومئذ قد بلغ منه السن، وعوَّقَه المرضُ وأنساهُ، وأنه أدخل هذا القسم وأقحمه فى موضعه بين الجاهليين والإسلاميين، لأنّه كانَ فى عجلة من أمره، وهسو يعيد كتابة النسخة الثانية من كتابه هذا (فى آخر عمره)، أى حين رجع إلى كتابة رسالة الكتاب).

فمن أجل ذلك أستطيع الآن أن أقول، وأنا مطمئن كل الاطمئنان: أن صنيع ابن سلام حين انتهى من الفقرة الثانية من كتابه في أصله الأول من نسخته الأولى، فقال ... «فبدأنا بالشعر» كان كلامه متصلاً بالفقرة الحادية والثلاثين حيث يقول: «ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزلناهم منازلَهُمْ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حُجَّة، وما قال فيه العلماء ...». فلما أعاد كتابة هذا في النسخة الثانية، بدا له على عجل أن يقحم في كلامه هنا خاطرًا جديدًا في الحديث عن «المصنوع المفتعل الموضوع»، ففصل بين الكلامين المتعانقين تعانقًا المستطراد المقحم قسمين: أولهما عن «المصنوع» من الفقرة الثلاثين، وجعل هذا الاستطراد المقحم قسمين: أولهما عن «المصنوع» من الفقرة الثلاثين، وهذا الإقحام الجديد على رُقْعة الكتاب، النالثة عشرة، وثانيهما عن أهل العلم والرواية الصحيحة من العلماء، من الفقرة والإبقحام الذي قبله، ربَّما زادًاه بهاءً وحُسْنًا، ولكنّهما على كُلِّ حال أحدثا وفي نَسْجِه بعض الاضطراب، ولكنه اضطرابٌ غير مَعِيب، إلّا في مطلع الفقرة في نَسْجِه بعض الاضطراب، ولكنه اضطرابٌ غير مَعِيب، إلّا في مطلع الفقرة الثالثة، الذي قذف بنا في حَيْرة غريبة جدًا، كما رأيت آنفًا من قريب.

والآن ، وقد فرغنا من إعادة النظر في بناء كتاب ابن سلام « طبقات فحول الشعراء » ، يكاد يكون من المقطوع به عندى أنّ ابن سلامٍ حين عاد إلى كتابة

نسخته الأخيرة ، وهي التي بين أيدينا اليوم ، قد أقحم على أصلها الأوّل زياداتٍ لم تكن في سياق منهج الكتاب ، وأنه كتب هذه الزيادات بأخَرَةٍ قبيل وفاته ، وأنّ بلوغة التسعين مع نوبة العِلَّة مرة بعد مرة ، قد جعلاه على عجلٍ من أمره في اقحامها إقحامًا يفصِلُ فصلًا ظاهرًا بيِّنَا بين كلامين كانا في أصله الأوّل متتابعين متصلين . وإذن ، فلا غرابة في أن يكون هذا الإقحام العجِلُ عند إعادة الكتابة ، ممّا يحدثُ اضطرابًا وحللًا في سياق حديثه على وجهه الذي كان أثبته أوّلا ، وكان ينبغي أن يظلً عليه ، لولا أنْ عَجِل مع الخاطر الملع عليه إلحاحًا حمله الحلق المباته ، ومع العجلة الزلل ومع الزلّل تفلّت الروابط واضطرابها ، ومع التفلّت الحلّ من شدة الحيرة ومخافة الضلال ! وإذا كُنْت قد اتهمتُ ابن سلام بالخطأ في عبارته ، فلم أتّهمه إلّا ومعي حُجّتي ، ولم أقدمْ على ذلك إلّا ومعي عُذْرُه ، ولا أواجهه الا ومعي اعتذاري إليه ، فإنّه إمامٌ من أئمينا ، ونحنُ عيالٌ عليه ، مقرّون بفضله وعلمه و قدمه وجلالته وسناء مرتبته .

ويعجبنى حديث أبى بكر بن دريد قال: «أخبرنا عمرو أخو هلال الرأى ، قال: جاء رجُل إلى أبى زيد الأنصارى، فسأله عن مسألة من النحو فأجابه ، فقال الرجل: إن سيبويه لا يرضى بهذا! فقال أبو زيد: اسكت ياصبى ، لقد جلستُ هذا المجلس قبل أن يُولَد سيبويه بثلاثين سنة!» ، فعلَّق على هذا الخبر أبو أحمد العسكرى، (الحسن بن عبد الله بن سعيد/٢٩٣-٢٩٣هـ) فقال: «وهذا جوابٌ غير مرضى، وكان يجب أن يتصرّف مع الحجّة لا مع كِبَر السنّ»، وصدق أبو أحمد، ونعم ما قال . ونحن بحمد الله ، نتصرّف مع الحجة، لا مع هيبة أبى عبد الله بن سلام وجلالة قدْره، معترفين له بالسبق والإمامة والإحسان كلَّ الإحسان فيما بقى لنا من علمه، وليس يعيبه أن يستدرك عليه من لا يلحق بغباره رحمه الله، وغفر لنا وله .

\* \* \*

بقى بعد هذا أن نلتمس السبب الذي من أجله استحسن ابن سلّام أن

يقحم بين قوله: «فبدأنا بالشعر» وبين صلة كلامه في أصله الأول: «ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ...» إلى آخر كلامه ، فهتك من أجل ذلك حبل الفاء العاطفة المعقّبة في «ففصّلنا ...» ، وبتكه بَتْكًا ، ثم وضعه بعد الفقرة الثلاثين غريبًا عنها ، وبقيت الفاء بلا معنى ، لأن قبلها مباشرة: «وكان الأصمعي وأبو عبيدة من أهل العلم ، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي ، ففصطنا الشعراء ...» . فأيّ خاطرٍ كان يجولُ في نَفْسِه ، أثَارَه وهَاجَهُ وأغراه بأن لا يبالي بسياق كلامه ، وحمله ، وهو يكتب النسخة الثانية ، أن يقحم بين الفقرة الثانية والفقرة الحادية والثلاثين ، ثمانية وعشرين فقرة ، إقحام متعجل لا يكادُ يصبر ؟ .

والإِجابة على هذا السؤال تتطلَّب بيانًا لأبُدَّ منه. وأخشى أن يكون ترك الإِبانة عنه، ممّا يجعلُ الحديثَ عنه غير مقنع ولا واضح، لأنّ هذا أمرٌ يتعلَّقُ بالسرائر المضمرة في النفس، لا بالكلام المسطور في الصحف. وقد وجدته، بعد الفحص، محالًا أن ألتمسه في صحف هذا الكتاب. وسأوجزه إيجازًا شديدًا.

الذى لا أشكُ فيه ، ولا يشكُ فيه أحد ممّن تقدّمنا ، أن أبا عبد الله بن سلام كان حَفِيًا كلَّ الحفاوة بشعر العرب وأخبارها وأيامها في الجاهلية والإسلام . وكان أبوه «سلام بن عبد الله بن سالم الجمحي ، مولى قدامة بن مظعون الجمحي » ، هو أيضًا حفيًا بالشعر والشعراء وأخبارهم ، كما يدلُّ على ذلك ما رواه عنه ابنه «محمد ابن سلام » في كتاب الطبقات ، فقد لقي سَلَّم ذا الرمة (رقم : ٢٦٤) ، فحرص بعد ذلك على أن يلقى «خرقاء »في ديار «بني عامر بن ربيعة » ، وهي التي كان يشبّب بها ذو الرمة ، وقال سلام «دخلتُ على خرقاء ، فقالت : اخرجي يا فاطمة – تعني ابنتها ، فخرجتِ امرأة جميلة ، وليست كأمّها . و «خرقاء » التي كانت تقول : «أنا من مناسك الحج » لقول ذي الرمة :

## تَمَامُ الحبِّ أن تقف المُطَايا على خرقاءَ واضعة اللثام

ونشأ ابن سلام مع أبيه ، فأخذ عنه ، وغَرِى بالشعر والشعراء وأخبارهم ، وكان ابن سلام يكثر سؤاله عمًّا يَسْمع من أخبارهم ، كما تدلُّ على ذلك روايته عنه في كتابه . (ولم أجد لأبيه سلام ، ذكرًا ولا خبرًا ولا رواية في غير كتاب الطبقات ) . فمنذ عقل محمد بن سلام في نحو سنة ، ١٥ من الهجرة إلى أن بلغ أقصى الغمر وطعن في الثانية والتسعين ، ظلَّ متقصِّيًا للشعر والشعراء ، فلقى الأثمة الكبار من علماء الأمة ، من أهل العلم والرواية الصحيحة ، وصحبهم دهرًا طويلًا ، حتى انتهت إليه الإمامة بعد ذهاب الأئمة القدماء ، فقصده الناش من الأقطار ، يأخذون عنه ، ويعرضون عليه ، ويسألونه عما أشكل عليهم من الشعر والأخبار وعلم العربية والحديث ، وغيرها مما كان عنده في وعائه . ويدلُّ كتابه هذا ، على أنه لم يقض عمره باطلًا ، ولم يقطعه غفلة عمّا كان يدورُ في مجالس العلم والعلماء في زمانه ، ولا قصَّر في الاطّلاع على ما كتب العلماء والرواة قبل مولده ، وفي مدة حياته .

والعصر الذي عاش فيه ابن سلام كان عَصْرًا زاحرًا يُعبُّ عُبابُه، لا في دار الخلافة وحدَها، بغداد، ولا في سائر مدنها الكبار كالكوفة والبصرة التي عاش فيها اثنتين وثمانين سنة، بل في كُلِّ أرجاء الأرض التي أظلتها كلمة لا إلله إلا الله، محمد رسول الله، على من أقصى الأندلس والمغرب، إلى تخوم الصين، في كل مدينة وربَض وبادية. ولو ذهبتُ أصف ما كان كيف كان، لما وسعته الأسفار الكبار، فكيف السبيل إلى ذلك في سطور لا تزيد في سفر صغير ولا تنقص. إنه أروع عصر مرَّ في تاريخ حضارات هذا العالم، منذ ترك الإنسان وسمّه على الأرض في حضارة متكاملة، وحشبك أن تعلم أنها الحضارة الأولى في تاريخ البشر، التي ما كادت تعرف صناعة الورق، حتى أخذتها بقُوةٍ، وأحدثت بها فتحًا جديدًا للإنسان، ونقلتها من صناعة مقصورة على المهارق وأحدثت بها فتحًا جديدًا للإنسان، ونقلتها من صناعة مقصورة على المهارق والصكوك والسّجلات والطوامير، التي كانت تراد لأعمال الدولة ودواوينها أكثر ما تُراد، وأقلَّه كتابة الكتب الكبار والأسفار المتعددة الجلود، بل كان

أكثره يلفُّ في الأضابير - نقلت هذه الصناعة إلى صناعة أخرى جديدة استحدثتها، هي صناعة ورق الصحف التي تطوي كراريس كراريس، وتجمع في جلدٍ واحدٍ يصونُها، جدّد أسلافنا يومئذ أساليب هذه الصناعة، حتى صارت قادرة على كثرة الإنتاج، وحتى صارت كُلِّ مدينة فما دونها لا تكادُ تخلو من صناعته، ولا من صناعة المداد، وصار الورق من يومئذ مبذولًا للصغار والكبار، وفي أيدى الرجال والنساءِ. ولم يسمَع الزمنُ من صرير الأقلام على وجوه الصُّحف، وفي نواحي الأرض المتباعدة المتقاذفة، وعلى تطاول الدهور = ما سمع من صريرها منذ خرج الورق على يد العرب من أشر الدواوين وكُتَّابها إلى أيدي الصغار والكبار من جماهير الناس وطلبة العلم، ولم ير الزمن أيضًا مدادًا يراقُ على الطروس، كما رآه في زمانهم هذا. ويقيني أنه لولا نزول القرآن على رسول الله ﷺ، ولولاً ما أوتيه ﷺ من الحكمة وجوامع الكلم، وأنه كان كما قال ﷺ «أوتيت القرآن ومِثْلَهُ معه»، وهو حديثه ﷺ، ثم لولا فتوى أبي بكر رضى الله عنه بكتابة المصحف = لبقى عالمنا هذا إلى يومنا هذا محبوسًا أكثر ورقه في المهارق المطوية في الأضابير بين جدران الدواوين وبيوت الدولة ، وأقَلُّه في كتابة الكتب. فهذا فضْلٌ واحدٌ لاغير، من فضل أمةٍ كانت في سابق علمه سبحانه وتعالى ، كما قال لهم في كتابه: ﴿ كنتم خير أُمةٍ أُخرجت للناس ».

لم أملك أن أكبح جِماحَ هذا القلم ، فإنّه عصْرٌ يذهلني ، كُلّما جاء ذكره في نفسي ، عما كنت فيه ، والذي كنت فيه هو الفحصُ عن الخاطِر الذي استولى على ابن سلام ، فأثاره وهاجه وأغراه أن لا يبالي بسياق كلامه ، وهو يكتب النسخة الثانية من كتابه ، فأقحم ما أقحم متعَجِّلًا قليل الصبر ، كيف جاء؟ وكيف استولى عليه ؟ .

وأعود مرة أخرى أقول: إن الإِجابة عن هذا السؤالِ تكاد تكون ضربًا من استشفافِ السرائر المطوية المستقرة في أغوار الضمائر، بلا دليل يهدى، وما هو إلّا كتابٌ مكتوبٌ! أمّا ابن سلّامٍ فقد مضَى لطِيّته، وطوتْهُ الدهور الطِوَالُ في

متظاهر أكفانها فلا علم لأحد بسرائر الماضين على حقيقتها، فإنَّ علمها عند علم الغيوب، وكُلُّ ما في أيدينا أن نستدلً بالخبر الشاهد على خبر غائب، ولكن رُبَّ استدلال وافق صوابًا خفيًّا، ولولاه لبطل علمٌ كثير. بل إن كل بحث في الأدب والتاريخ وغيرهما من علومنا، لا يكادُ يقوم إلّا على هذا الاستدلال وحده، وإن كان السبيلُ إليه محفوفًا بالعواثير المهلكة، والمتالف المرهوبة. ولذلك ينبغي أن نحذر كلَّ الحذر، فإن الخطأ فيه أكثرُ من الصواب، لمن لم يملك حميًّا مرهفًا نافذًا يتلقي نبض اللغة وألفاظها بالجس والتقليب، حسل الطبيب مواطِنَ البدن الدَّالة على مكان العلّة من العليل. والبحث في مأثور الآداب، وفي أحبار التاريخ، وفي مسطور الكتب ورسائل الكتاب، وفي أمواصابها أو عاليها أو طويت معهم طيًّا، وذهبت حيث ذهبوا، بلا أمّل لأحد بعد ذهاب أشباحِهم في لقاء أو سماع أو سؤال.

ومذهبي أنّ هذا الاستدلال قائم أساسه على «التذوّق»، وقد قلتُ قديمًا في بعض ما كتبتُ: «كلَّ حضارة بالغة تفقدُ دِقَّة التذوُّق، تفقد معها أسباب بقائها. والتذوّق ليس قوامًا للآداب والفنون وحدها، بل هو قوامٌ لكل علم وصناعة، على اختلاف بابات ذلك كُلّه وتباين أنواعه وضروبه. وكلَّ حضارة نامية تريدُ أن تفرض وجُودها، وتبلُغ تمامَ تكوينها، إذا لم تستقِلُ بتذوّق حسَّاسِ نافذِ تحتَصُّ به وتنفردُ، لم يكن الإرادتها في فرض وجودها معنى يعقل، بل تكادُ هذه الإرادة أن تكون ضربًا من التوهم والأحلام لا خير فيه، فحسن التذوق، يعنى سلامة العقل والنفس والقلب من الآفات، فهو لبُّ الحضارة وقوامها، لأنه أيضًا قِوامُ الإنسان العاقل المدرك الذي تقومُ به الحضارة».

ونحنُ ، أصحابَ هذا اللسان العربيّ المُبين ، قد قام أصلُ حضارتنا على التذوّق ، في الجاهلية الغابرة ، وفي الإسلام الباقي بحمد الله وحده ، وبلغ التذوّقُ بنا مبلغًا سَنيًّا فريدًا ، وحين بَدَأ تشتّته وتبعثُره بدأ معهما التّدهُور

والإدبار . فواجبنا اليوم أن نُعيد بناءَ أنفُسنا على مَا بُنِيتٌ عليه حضارتنا من دقة « التذوق » ، وأن يكون التذوق أساسَ عملنا الأدبيّ في آثار أسلافنا ، وأن نُلاقِيي كلمات أخبارهم التي أُثرت عَنْهُم بالفحص النافذ، وأن ننفُضَ غَيْبَ كلماتهم بالتذوُّق، ونتوسُّم بالتفرُّس في معاطفها، ثُمَّ نستجليها ونسألها ونستخبرُها عن هذه السرائر المغيَّبة المحجوبة في طواياها، وإلا يكنْ هذا حقًّا محضًا، فحدثْني إذن، كيف يمكن أن يقع التمييز بين شعر امرىء القيس، وشعر طرفة، وشعر زهير، وشعر النابغة، وشعر أبي تمام، وشعر البحتري، ومن شئت من الشعراء؟ كيف كان ممكنًا ذلك التمييز في مدّة حياتهم، وكيف يكون ممكنًا بعد مماتهم، إلَّا بهذا العمل الدائب في ممارسة الكلمات، واستنباط الخفيِّ من أسرارها، وتذوُّقِ أساليبها، وتسمُّع الرِّكز الخفيّ في جَرْسها ونبرها، ثم تولُّحُ الحسِّ إلى كُنْهِ كُلِّ حرفٍ في بنائها وتركيبها ، بلمح مِتيقظٍ مُتَلقّط بصير ، حتى تنشأ في النفس صورةٌ واضحةٌ لكُل منهم يَبين بهاً من سواه . وحتى يتردّدَ في السَّمع صَدَّى متميّزٌ يُعْرفُ به صوت أحدِهم من صوت صاحبه ؟ وإذا بلغ التذوّق هذا المبلغ، لم يكد المرء بعد ذلك يخطىء الصورة البيِّنة الملامح، ولا يكاد يستنكر الصوت المتفرِّد بترجيعه ونَغْمته. وإذا قرأتَ شعر أحدهم وجدت صاحبه بعد ذلك حيًّا يروح ويَغْدو في جميع أحواله، على ضروب من الهيئة تعرفها النفسُ معرفة التبيُّن والتمييز. وكُلُّ بحث أدبيٌّ أو تاريخي، سوف يكون عندئذِ استحياءً لأشباح مضتْ ، من رسوم كلمات بقيتْ . وسرّ هذا كامن في التذوّق ، وفي تذوّق الكلمات خاصة.

وسأضرب مثلين من أمثلة كثيرة، يدلان على أنَّ هذا كان كائنًا عند أسلافنا، أحدُهما جليل القدر، والآخر أجلُّ وأعظم.

أما الأوّل فإن ذا الرمة الشاعر، كان قد نشِب الهجاء بينه وبين هشام المَرّئي، وكاد هشامٌ يُغَلَّبُ عليه، حتى لقى يومًا جريرًا، فاستنشدهُ هجاءَةً

هشامًا ، فأنشده رائيته في هجائه ، فلما فرغ من إنشاده قال له جرير: ما صنعتَ شيئًا! أَارْفِدُك؟ قال ذو الرمة: نعم ، فأرفدهُ ثلاثة أبيات ختم بها قصيدته ، وهي :

يعُدُّ الناسبونَ بنى تميم بُيوتَ المَجْد أربعةً كِبارَا يعدُّون الرِّبابَ وآل سعدٍ وعمرًا، ثم حنظلة الخيارَا ويَهْلِكُ بينها المَرَئيُّ لَغُوًا كما أَلْغَيْتَ في الدِّيَةِ الحُوَّارا

فغلبه يومئذ ذو الرمة بهذه الثلاثة الأبيات ... ثم مرَّ ذو الرُّمة بعدُ بالفرزدق ، فقال له : أنشدني أحدثَ ما قلتَ في المرئيِّ ، فأنشدهُ هذه القصيدة ، فلمَّا بلغ آخر الأبيات الثلاثة في ختامها ، أطرق الفرزدق ساعةً ، ثم قال له : أعدْ فأعاد ، فقال له : كذبتَ وَأَيْمُ الله! ما هذا لك! ولقد قالها أشدُّ لَحْيَين منك! ما هذا إلا شعرُ ابْن الأتانِ! (يعني جريرًا) .

فبهذا التذوّق النافِذ وحده، استطاع الفرزدق أن يلمَح جريرًا بهيئته وصورته وصوته من وراء هذه الكلمات القلائل.

أما ثانى المثلين، فهو أروع وأنفذ، فإن الله سُبْحانه حين ابتعث نبيه على مدق نبوته يطالبهم بالإيمان به، سوى ما نُرّل عليه من القرآن منجَّمًا على ثلاثٍ وعشرين سنة. وطالب عبادَهُ من عرب الجاهلية أن يتبيَّنوا أنّ ما نُزِّل إليه هو كلامُ الله المفارق لكلام البَشَر على اختلاف ألسنتهم، وذلك بمجوَّد سماعه يُتْلَى عليهم في آياتٍ قلائل في أوّل العهد بالإسلام، وفوّض إليهم أن يحكُمُوا على قليله منذ بُعِث، بأنه وحي أوحاه الله لا يُطيق أن يأتى بمثله لا محمد على ولا غيره من البشر. ولا سبيل لأحد إلّا عن طريق أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحبًا أوحِي أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحبًا أوحِي إلى التذوّق الذي أكون أكثرهُم تابعًا يوم القيامة »، أي أنَّ الآية التي يفوّضُ أمرها إلى التذوّق القائم في طبيعة البشر، أبقى من الآية التي تنقضي بانقضاء إلى التذوّق القائم في طبيعة البشر، أبقى من الآية التي تنقضي بانقضاء عدوثها، ولا يبقى للبشر بعدها إلا التسليم بحدوثها لا غير، كعصى موسى

وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. ولكن ليس هذا موضع المثل الذى أردته، ورأبي في معنى قولنا «إعجاز القرآن» معروف فيما أظنّ. أمّا المثل الذى أردتُه، فهو أبلغ وأنفذُ في عمل «التذوق» لا في تمييز كلام رب العالمين من كلام البشر، بل في تمييز كلام رسول الله عليه، من كلامِه هو نفسه قبل البعثة، ومن كلام سائر العرب في زمانه وبعد زمانه.

كان لرسول الله ﷺ صديقٌ يعرفه في الجاهلية ، كما يعرف الناسُ بعضهم بعضًا، فلما بُعث على رأس الأربعين من عمره، ناوأه قومه من قريش وسفَّهوه وآذَوْه . فقدم هذا الصديق القديم مَكَة يومًا ، فسمع الناسَ يتحدَّثون أن محمدًا: شاعر وكاهنّ ومجنونٌ ، يقول ابن عباس في حديثه الذي رواه مسلم في صحيحه، وأحمدُ في مسنده والنَّسائي في سننه، وابن سعد في الطبقات، وغيرهم، وهذا لفظ مسلم: «عن ابن عباس: أنَّ ضمادًا قدم مكَّة، وكان من أزد شَنُوءة وكان يَرْقِي من هذه الريح (أي من الجنون ومسّ الجن)، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولونَ: إنّ محمدًا مجنون! فقال: لو أنّى رأيت هذا الربحل لعل الله يشفيه على يديّ ! قال : فلقيه ، فقال : يا محمد ، إنِّي أرقِي من هذه الرِّيح، وإنَّ الله يشفي على يديّ من شاءَ، فَهَلْ لك؟! فقال رسول الله ﷺ: إنَّ الحمدَ لله، نَحْمَدُه ونستعينُه، من يهده الله فلا مُضلُّ له، ومن يُصْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدًا عبده ورسوله، أما بعدُ ، قال فقال (ضماد): أعِدْ على كلماتِكَ هؤلاءِ، فأعادهُنَّ عليه رسول الله عَلَيْهُ ثلاثَ مرَّاتِ. قال فقال: لقد سمعتُ قول الكهَنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعتُ مِثْلَ كلماتِك هؤلاءٍ، ولقد بلغنَ نَاعُوس البحر! قال فقال: هات يَدَكُ أبايعك على الإسلام، قال: فيابعه ...

كلمات قلائل تذوَّقها ضمادٌ رضي الله عنه، ولم يصبر حتى يُتْلى عليه بعض ما نُزِّل من القرآن يومئذ بمكة، وقطع الحديث ليستعيد ما سمع، ونحن اليوم نسمَعُها من كُلِّ منبرٍ في كُلِّ يوم جمعةٍ، ونحنُ في غفلةٍ عن تذوُّقها تذوق ضمادٍ. كانت هذه الكلمات التي سمعها ضمادٌ يومئذٍ هي وحدها دليله

على نبوّة صديقه الذي كان يعرفه ويعرف كلامه بالأمس في الجاهلية. لأنه وصل بتذوّقها إلى صميم الفرق بين كلام صاحبه بالأمس، وكلامه في هذا اليوم، وأسرعت به إلى البيعة على الإسلام قبل أن يسمع كلام الله! فأيُّ دقّة في التذوّق!! وأيُّ رجالٍ كان هؤلاء الذين فُوِّض إليهم التفريق بين كلام رب العالمين، وكلام عبيده من البشر!؟

لقد أطلتُ الاستطراد، ولكنى رأيته شيئًا لائبدً منه، لأن مذهبى فى دراسة الأدب قائم عليه فيما كتبته قديمًا، وفيما أكتبه اليوم، ولأنَّه هو الفيصلُ الفارق بين مناهج الدراسة المتلقّاة عن غير أهل هذا اللسان، وبين المناهج التى ينبغى أن تنبّع من الأصل الذى قامت عليه حضارة هذا اللسان، ثم ضُلِّلْنَا عنه وطال الضلال. وهذا حينُ عودتنا إلى شيخنا محمد بن سلام، وما كان من خبره فى تأليف كتاب «طبقات فحول الشعراء».

\* \* \*

نشأ أبو عبد الله محمد بن سلام واكتهل وبلغ من السنّ ما بلغ ، في سُرَّة عصر فريد في تاريخ البشر ، على تطاوُل القرون من قبله ومن بعده . أستثنى عصر رسول الله ﷺ وخلفائه الأربعة . وكان عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم قد انقضى ، وتدفق علمهم في صدور ورَثَتهم متلاطمًا ، فانشق القرن الثاني من الهجرة عن بحور العلم الزاخرة وجباله الشوامخ . وكانت قَوَاعِد العِلْم الكبرى قائمة في الكوفة ، وفي البصرة التي نشأ فيها ابن سلام ، وهما المدينتان العتيقتان اللتان تم تمصيرهما على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما بين سنة ١٤ ، اللتان تم تمصيرهما على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما بين سنة ١٤ ، هاتين المدينتين العظيمتين ، فجاء منتصف القرن الثاني من الهجرة ، وفيهما وَفْرَةٌ هاتين المدينتين العظيمتين ، فجاء منتصف القرن الثاني من الهجرة ، وفيهما وَفْرَةٌ وافرة من جبال العِلْم وبحاره المتدفقة . أدرك محمد بن سلام منتصف هذا القرن ، وهو بالغ يتعلَّم ، فشهد تلاقي هذا التَدفّق من صدور العلماء إلى آذان القرن ، وهو بالغ يتعلَّم ، فشهد تلاقي هذا الجيل من حفاظ العلم وطلبته تلقيًا يزخَرُ بالهمة والفهم والتوشع . كان علم هؤلاء العلماء بحرًا يجيش في صُدُورهم ، أقلَّة والفهم والتوشع . كان علم هؤلاء العلماء بحرًا يجيش في صُدُورهم ، أقلَّة والفهم والتوشع . كان علم هؤلاء العلماء بحرًا يجيش في صُدُورهم ، أقلَّة المُقْصِة علي المناء بحرًا يجيش في صُدُورهم ، أقلَّة والفهم والتوشع . كان علم هؤلاء العلماء بحرًا يجيش في صُدُورهم ، أقلَّة المُوره المؤلوء العلم والمؤلوء العلم والمؤلوء المؤلوء العلم والمؤلوء العلم والمؤلوء المؤلوء العلم والمؤلوء المؤلوء العلم والمؤلوء المؤلوء المؤلوء العلم والمؤلوء المؤلوء المؤلوء

ما قيدُوه كتابةً ، وأكثرُه ما كانوا يتحدثون به ، ويُبينون عنه بألسنتهم حين يُسألون عن بيانِ ما يتحدثون به . فَقَلَّ اهتمامهم بتأليف الكُتُب الكبارِ المفصَّلة المفسَّرة ، وأكثرهُم لم يؤلِّف كتابًا قَطُّ ، وإنما سارَ علمه في الناسِ بكثرة من أخذ عَنْه وسألَهُ وأجابه . فكان مُحلُّ تلامذتهم يسيرون على سنتهم ، ويتلقَّون عنهم . ويحفظون ما يتلقَّونه وما يكتبونه مع ما سمعوه منهم ، بيد أن بعض تلامذتهم خالفوا سُنتهم في ترك تأليف الكتب ، وفي الاقتصار على تأليف الكتب الصغار .

ولكى تكون هذه الصورة واضحةً ، ينبغى أن نضرب مثلًا يبينُ عنها . فالخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٠هـ)، كان أحد ورثة العلم الكبار، وكان بحرًا لا يكادُ يدرك مداهُ. ومع ذلك فإنّه لم يؤلِّف إلا كِتبًا صغارًا جدًّا ضاعَ أكثرها ، أو جميعها على الأصحّ ، ولكنَّه كان لطلبة العِلْم يَنْبُوعًا متفجِّرًا يصدُر عنه الورّاد رواءً ، حتى قال أحد تلامذته النضر بن شميل : « أَكِلَت الدُّنيا ـ بعلم الخليل وكتبه ، وهو في خُصٌّ لا يُشْعَرُ به ». هذا مع أنَّه أوَّل رجل في الأرض، وضَع الأساس الكامِلَ لتأليف معاجم اللغة لم يَسْبِقْهُ أحدٌ إلى مثله، والبشر قاطبة عيالٌ عليه في معرفة الطريق إلى تأليف المعاجم، فهو الذي حدّدُ أصول المعجم المنسوب إليه ، وهو «كتاب العين » ، قال ثعلب : « إنما وقع الغَلَطُ في كتاب العين، لأنَّ الخليل رَسَمَهُ ولم يَحْشُه، ولو كان حشاهُ ما بَقي فيه شيء، لأنَّ الخليل رجُلُّ لم يُرَ مِثْلُه، وقد حشا الكتاب قوم علماء، إلَّا أنَّه لم يؤخذ عنهم رواية ، وإنَّما وُجِد بنقل الورَّاقين ، فاختلُّ الكتاب لهذه الجهة ». وطريقة رسم الكتاب التي ذكرها ثعلب، أنَّ الخليل حين فكُّر في وضع معجم يجمع لغة العرب، لجأ إلى حَصْر رؤوس مادة اللغة أوّلًا، وذلك بأن عَمد إلى أصعب طريق، ولكنَّه أوثَقُه حتى لا يسقط من مادة اللغة شيء، فأخذ حروف المعجم التسعة والعشرين (أ. ب. ت. ث....)، ولجأ إلى ما نسمّيه اليوم «قانون التباديل والتوافيق»، فاستخرج عدّة الأبنية التي يمكن أن تتركب من حروف المعجم، فبلغت عدّة ملايين، في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من

الأبنية. ثم عرضَ هذه الملايين على ما في صدره من كلام العرب، فاستخرج المهمل والمستعمل، حتى حصر اللغة حصرًا دقيقًا بلا رجوع إلى كتاب مقيد، فوضع هذا الأصل لمادة اللغة، ولكنه لم يزد على الحصر. ثم تبعه الناش، فألفوا معجم اللغة، وإن خالفوا فيما بعدُ طريقته.

وهو أيضًا أوّلُ رجُلِ ضبط حدود الحركات والسكنات على نِسَبِ لا تختَلُ، إذا بُنى عليها كلامٌ من كلام العرب كان نغمًا مَوْزُونًا، وأراد بذلك أن يضبط ما يسمَّى في كلام العرب «شعرًا»، وهو علم العروضِ الذي نعرفُه. وعن طريق اهتدائه إلى هذا الضبط، اهتدى أيضًا إلى ضبط نغم الموسيقي، فكان أوَّل رجل في الأرض وضعَ هذا الضبط، وأخذه عنه إمام الموسيقي في عصره، (والخليل لم يكن له معرفة بالموسيقي)، إسحق بن إبراهيم الموصلي (١٥٠- ١٣٥ه)، فأتمَّ عمل الخليل بعلمه. وحين ألف إسحق كتابه «الإيقاع والنغم»، عرضه على ضريعه ومنافسه ومخالفه في الطريقة، إبراهيم بن المهدي (١٦٥ - ١٦٢)، فقال له إبراهيم: «أحسنت يا أبا محمد، وكثيرًا ما تُحسِنُ!» فقال إسحق: «بل أحسن الخليل، لأنّه هو الذي جعل السبيل ما تُحسِنُ!» فقال إسحق علم الموسيقي وضبطه، وكان عَمَلُ الخليل هو الذي هداه، وهدى الناس من بعده إلى ضبط الموسيقي وحصرها، وهو الذي نعرفه اليوم باسم «النوتة الموسيقية».

وكان الخليل يوشك أن يأتى بأعجب من ذلك. أراد أن يضبط علم الحساب ويحصره حتى يكون له ميزان يُرْجَع إليه ، كالذى فعله فى «العروض» و «النغم»، وقال يومئذ: «أريدُ أن أقرِّبَ نوعًا من الحساب، تمضى به الجارية إلى البقّال، فلا يمكنه أن يظلمها»، أى أن يغالطها فى الحساب، وهى جاهلة الحساب. فدخل المسجد يومًا وهو مشغول بوضع هذا الميزان الخاص للحساب، فصدمته سارية من سوارى المسجد، وهو غافل مُشتغرق فى حسابه، فانقلب على ظهره، فكان ذلك سبب موته بعد قليل.

فلننظر الآن كيف صار أمــــرُ علم الخليل، الذى نستطيع أنْ نقولَ إنه لم

يؤلف في عمره الطويل كتابًا يُذْكر، والذي قال فيه تلميذه النضر بن شميل (۲۰۰ – ۲۰۳): «ما رأى الراؤون مثل الخليل، ولا رأى الخليلُ مثل نفسه». أما « النغم » ، فقد ذهب به إسحقُ كما قلنا . وأمّا « علم العروض » ، فأخذه عنه أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٠٠٠ – ٢١٥)، فبسط هذا العلم ومدّه واستوعبه، وتبعه الناس، وبقيت كتب الأخفش من بعده أصلًا واسعًا لهذا العلم، وضاع قليلُ ما كتب الخليل. وأمّا مادَّةُ حَصْر اللغة التي أسسها ووضعها في أصل كتاب العين، فأخذه عنه الليث بنُ نصر بن سيار، وحشاهُ وتبعه الناس. أما علمُ النحو والعربية ، وهو أوثقُ علوم الخليل وأجلُّها ، فلم نسمع قَطُّ أنه ألف فيه كتابًا ، وقد تلقَّاهُ عنه عشراتٌ من كبار العلماء من شيوحه وأسنانه وتلامذته ، ولكن بان من بينهم شابِّ آثره الخليل بما ضَنَّ به على غيره، وحمَّله علمه وأسراره الخفية وكان شابًا ملء ثيابه عقلًا وإدراكًا وبيانًا وذكاءً ومقدرةً، وهو سيبويه (١٨٠ - ٠٠٠). وقد بلغ من إيثار الخليل سيبويه بعلمه ، أن الأخفش ، حدث عن نفسه فقال: «حضرت مجلس الخليل، فجاء سيبويه فسأله مسألةً وفسَّرها له الخليل، فلم أفهم ما قالاً، فقمتُ وجلستُ له في الطريق، فقلت: جعلني الله فداءَك ! سألتَ الخليل عن مسألةٍ ، فلم أفهم ما ردّ عليك،. ففهّ منيه ! فأخبرني بها ، فلم تقع لي ولا فهمتُها . فقلتُ له : لا تتوهُّم أني أسألك إعناتًا ، فإني لم أَفْهِمُهَا وَلَمْ تَقَعَ لَى ! فَقَالَ لَى : وَيَلْكَ ! وَمَتَّى تُوهَّمْتُ أَنِي أَتُوهَّمُ أَنَّك تُعنِتُني ، ثم زجرني وتركني ومضي». وظَلُّ هذا الشاب يأخذ عن الخليل من ينبوعه المتفجّر، وبذل له سرَّ العربيّة الذي كان في صدره، وعقد لَهُ بناء النحو عقدًا كاملًا وآثرهُ به، ولم يكتب هو شيئًا ، وبقى مع الخليل حتى مات ، يحدثنا القاضي إسماعيل بن إسحق الأزدى (٠٠٠ - ٢٨٢)، عن نصر بن على بن نصر الجهضمي (٠٠٠ - ٢٥٠)، عن أبيه على بن نصر الجهضمي (٠٠٠ -١٨٧). وكان قرين سيبويه ، وكانا معًا من أصحاب الخليل في علم العربية ، قال على بن نصر: «قال لي سيبويه حين رآني (يعني بعد موت الخليل): تعالَ نتعَاوَنْ على إحياءِ علم الخليل»، ولكن عليا لم يعاون سيبويه، فانطلق سيبويه وحدّه يؤلف هذا الكتاب البَحْر، الذي لم ير الناس مثله قبله ولا بعدهُ، وهو «الكتاب»، وقد قلت منذ أربعين سنة إن قراءة كتاب سيبويه، وتتبعَ مصطلحاته، تدلُّ دلالة قاطعة على أن الخليل هو الذي وضع لسيبويه بناء هذا الكتاب، وأنه هو الذي عقد لَهُ عَقْدَهُ الذي نراهُ عليه اليوم. ولولا الخليل لما كانَ « الكتاب »!

هذه صورة تلاقى جبال العلم الشوامخ الذين كان علمهم في صدورهم وقلُّ تأليفهم، وبحارُ العلم من تلامذتهم الذين تدفَّقَ إليهم علم شيوخهم، فألُّفوا وكتبوا ووضعوا أصول العلم المختلفة. انتزعتُها من رجُل واحد، ورثه تلامذته، وأشباهُ هذا الرجل الفذّ كثيرٌ في عصره، وأشباه تلامذته كثير من بعد شيوخهم. وقد شُهدَ محمد بن سلام هذا التلاقي وما كان من أثره ، منذ كان يحضُّهُ مجالس أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والأصمعي، وأبي عبيدة والخليل بن أحمد وسيبويه، والأخفش، فنازعته نفشه منذ ذلك الوقت أن يفعل في شأن الأدب والشعر وأخبار العرب ما فعل هؤلاء بعلم «العروض» و «علم النغم» ، و «علم النحو والعربية» ومضت الأيام به سراعًا حتَّى كانت سنة ٢٢٢ ، وهو في الثانية والثمانين من عمره ورأى العلماءَ من قَبْله ترحَلُ إلى بغداد، المدينة الحديثة العهد التي أنشأها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٦، وصارت دارَ الخلافة، واتحتشد فيها مهاجرة العلم والعلماء، وعزمَ على أن يلحقَ بمن سبقَهُ ممن هاجر مِن البصرة إلى بغداد ، وفي نفسه ذلك الأمل الذي لم يحقّقه ، لأنّه بقى على إلفه القديم من سُنّة العلماء الماضين، ممن كان علمهم في صدورهم. فلما دخل بغداد، ولقيته الحفاوةُ كُلُّ الحفاوة، ورأى أفواج العلماء والأشراف وطلبة العلم، تطيفُ به من نواحيه، ويسأله السائلون ويستفسرونه ويستخبرونه، وهو الإمام المشهور في الأدب واللغة والعربية والشعر، وبقيةُ الماضين من جبال العلم الشوامخ، عاد ما كان يجيش قديما في صدره من تأسيس علم الأدب وعلم الشعر وعلم أخبار العرب، بكتب يؤلفها. ولكن لم يكد حتى مرض .. وزاره الطبيب ابن ماسويه ، فقال له فيما قال : « الإنسان في غفلةٍ حتَّى يُوقَّظُ بعلة، ولو وقفت على عرفات وقفة، وزرت قبر رسول الله وَلَتُ مِنْ اسْتِلَ ، وقضيتُ أشياء في نفسي ، لرأيتَ ما اشتدَ عليّ من هذا قد سَهُل » . فبدأ بعد أن استبلّ ، في وضع منهج كتابه الأول «طبقات فحول الشعراء» ، وكتب هذا المنهج في صدر كتابه ، ومضى يؤلّف ، ليؤسس بهذا الكتاب «علم الأدب والشعر » ، كما فعل الأخفش وسيبويه وغيرهما ، ومضى عَجِلًا وألّف ، وفرغَ فيما أرجِّحُ ، من نسخته الأولى ، ولكنه فوجئ برجُل كان واحدَ الدُّنْيَا في زمانه ، فذكّرة بأشياء كان ينبغي أن تكون أساس منهجه ولكنه غَفَلَ عنها أو نَسْيَها ، أو لم تخطر له في أول التأليف على بالي ، مع تقدّم السنّ ، ومع العجلة ، ومع غموضِ تأسيس منهج شاملٍ لعلم الأدب والشعر . هذا الرجل ، هو العجيى بن مَعين بن عون ، أبو زكريا المرّيّ ، مولى مرّة غطفان ، المولود سنة يحيى بن مَعين ؟ وماذا فعل بابن سلام ؟

\* \* \*

كان يحيى بن مَعين فتى من أبناء الأغنياء، وكان أبوه معين بن عون عاملًا على خراج الرى ، وهى قصبة الجبال ، ومن أمهات البلاد وأعلام المدن يومئذ . فلمّا مات أبوه حلّف له ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فأنفق ذلك كُلّه على طلب حديث رسول الله على الله على الله على المائية الله واحد الله الله على علم الحديث ، وآلت إليه إمامة علم الرجال والجرح والتعديل . وقد حفظ لنا قرينه وضريعه على بن عبد الله بن جعفر السعدى المعروف بابن المديني (١٦١ – ٢٣٤) صورة رائعة جدًّا لتدفَّق العلم من مطلع القرن الأول للهجرة ، إلى منتهى القرن الثانى . وهى صورة تزيد ما قلناه فى شأن الخليل وتلامذته وضوحًا .

قال ابن المديني: «انتهى العلم بالبَصْرةِ إلى يحيى بن أبي كثير وقتادة = وانتهى علم الكوفة إلى أبي إسحق والأعمش = وانتهى علم الحجاز إلى ابن شهاب وعمرو بن دينار = وصار علمُ هؤلاء الستة إلى اثنى عشر رجلًا، منهم

بالبصرة: سعيد بن أبى عَروبة وشعبة، ومعمر، وحمّاد بن سلمة، وأبو عَوانة = ومن أهل الكوفة إلى سفيان الثورى، وسفيان بن عيينة، ومن أهل الحجاز إلى مالك بن أنس = ومن أهل الشام إلى الأوزاعيّ، وانتهى علم هؤلاء إلى محمد ابن إسحق، وهشام، ويحيى بن سعيد بن أبى زائدة، ووكيع، وابن المبارك، وهو أوسع هؤلاء علمًا، وابن مهديّ، ويحيى بن آدم = فصار علم هؤلاء جميعًا إلى يحيى بن معين». وهذه صورة في غاية الوضوح، فلمّا صار هذا كُلّه إلى ابن معين، فتح به فتحًا كبيرًا في علمين جليلين: علم الأحاديث وما يكون فيها من الخطأ، وما يكشفُ عن وضع الوضاعين الذين كذبوا على رسول الله عنه وعلم الرجال والجرح والتعديل، وتوفى ابن معين، فترك مئة قمطر وأربعة عشر قمطرًا، وأربع حبّاب كبار مملوءةً كتبًا.

وعلى تطاول الأيّام، بلغ ابن معين الغاية وفاق أقرانه وشيوخه في معرفة الحديث، وفي الجرح والتعديل ومعرفة الرجال، وكان قضى دهره في الرحلة في الآفاق، لا يفتر في تتبّع علم ذلك عند العلماء والرواة، وعند كُلِّ من نزل بغداد منهم. فصارت له بذلك خبرة لا تدانيها خبرة أحدٍ من قبله ولا من بعده. وقد حدثنا عبد الله بن محمد اليمامي المحدّث، المعروف بابن الرومي (٠٠٠ - ٢٣٦) قال: «كنت عند أحمد بن حنبل، فجاء رجُلٌ فقال: يا أبا عبد الله، انظر في هذه الأحاديث، فإن فيها خطأ! فقال أحمد: عليك بأبي زكريا، فإنه يعرف الخطأ». فهذه شهادة أحمد. أما أبو سعيد الحدّاد فإنه قال: «إنا لنذهب يعرف الخطأ». فهذه شهادة أحمد، أما أبو سعيد الحدّاد فإنه قال: «إنا لنذهب أبو زكريا، فأول شيء يقع في يده الخطأ، ولولا أنه عرَّفَنَاه لم نعرْفَهُ» وهذا الاستيعابُ البحرُ الذي أوتيه أبو زكريا بن معين، قذف هيبته في قلوب كُلٌ من حدّث عن رسول لله ﷺ، وقد تحدث هرون بن معروف المروزي (١٥٧ حدّث عن رسول لله ﷺ، وقد تحدث هرون بن معروف المروزي (١٥٧ حدّث عن رسول لله ﷺ، وقد تحدث هرون بن معروف المروزي (١٥٧ حدّث من الشام، وكنت أوّل من بكّر عليه، فدخلت عليه فسألته أن يملي على شيئًا، من الشام، وكنت أوّل من بكّر عليه، فدخلت عليه فسألته أن يملي على على شيئًا، فأخذ الكتاب يملي على على . فإذا بإنسان يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا؟ فأخذ الكتاب يملي على على . فإذا بإنسان يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا؟

قال: أحمد بن حنبل! فأذن له، والشيخ على حاله والكتابُ في يده لا يتحرّك . فإذا بآخر يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا ؟ قال: أحمد الدورق ي ! (أحمد ابن إبراهيم الدورق ي: ١٦٨ - ٢٤٦). فأذن له، والشيخ على حالته، والكتاب في يده لا يتحرك . فإذا بآخر يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا ؟ قال: أبو خيثمة زهير بن حرب (١٦٠ - ٢٣٤)، فأذن له، الشيخ على حالته، والكتاب في يده لا يتحرّك . فإذا آخر يدق الباب، قال الشيخ: من هذا ؟ قال: يحيى بن معين = فرأيت الشيخ ارتعدت يده، وسقط الكتاب من يده!!» . وهذا يحبى بن معين حقيقة الهيبة التي ذهبت في الآفاق من مخافة علم ابن معين بالحديث، وهذا هو ابن معين .

لننظر الآن كيف التقى الرجلان محمد وابن معين .

\* \* \*

قد بلغ الخامسة والستين، فهو لا يسأله سؤال طلبة العلم الصغار شيوخهم، بل سؤال العلماءِ الكبار للعلماءِ الكبارِ ، بلا شك . وإن كان ليس في أيدينا الآن ، فيما بلغه عجزي أخبار، تدلُّ على ما كان يجرى بينَهما. وكُلُّ ما عندنا هو حديث أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب أنه قال: «حدثنا محمد بن سلام، عن زائدة بن أبي الرقاد ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال ، قال النبي علي لأمّ عطية: يا أمّ عطية، إذا خفضت فأشِمّي ولا تَنْهكِي، فإنه أضوأ (أنضَر) للوجه ، وأحظى عند الزوج» قال أبو العباس : « رأيت يحيى بن معين بين يلرِي محمد بن سَلَّام يسألُه عن هذا الحديث». وسبب سؤال يحيى عن هذا الحديث محمد بن سلام، أن ثابتا البناني صحب أنسًا أربعين سنة، فكان يمن أثبت الناس في أنس ، أمَّا زائدة بن أبي الرقاد الباهلي ، الذي يروى عنه محمد ابن سلام، ويروى هو عن أنس فإن البخاري قال فيه «منكر الحديث» وقال ابن حبان : «روى المناكير عن المشاهير، لا يُحتج به، ولا يُكتب إلَّا للاعتباري». وقال البزاز: «لا بأس به، وإنما نكتب من حديثه ما لم نجد عند غيره». وقد حاولت أن أتتبع هذا الحديث في حديث أنس، فلم أجد له ذكرًا، وحديثِ أم عطية رواه بغير هذا اللفظ أبو داود في السنن، في كتاب الأدب، من طريق محمد بن مروان ، عن محمد بن حسان ، عن عبد الوهاب ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أم عطية ، وقال أبو داود: «رُوى عن عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الملك، بمعناه وإسناده. وليس بالقوى. وقد روى مرسلًا. وقال أبو داود: محمّد بن حسان مجهول ، وهذا الحديث ضعيف» . والذي لا أكاد أشكُّدفيه أن ابن معين قد بيّن لابن سلام مثل هذا وأكثر منه، في هذا الحديث، وفي غيره من الأحاديث التي سألَّهُ عَنْهَا، وطالت المفاوضة بينهما على طول اختلاف ابن معين إلى ابن سلام .

والذى لا أكادُ أشكُ فيه أيضًا أنّ ابنَ سلام قبل نزوله بغداد وهو بالبصرة ، كان قد سَمِعَ بعض ذكر ابن معيني ، إذ كان صيته قد طار في الآفاق . فلما رآه وفاوضه العلم ، رأى منه ما كان يَرَى الناس منه حتى كان يقول بعضُ من

يحدث عنه: «حدّثني من لم تطلع الشمسُ على أكبر منه» ، يعني يحيي بن معين. والذي لا أكادُ أشكُّ فيه أيضًا أن ما سمعه ابن سلام من ابن معين قد دلَّه أعظم الدلالة على ما يبذُلُه هذا الإمامُ من جُهد في تخليص حديث رسول الله ﷺ من كُل ما يشوب متونه وأسانيده ، لينفى عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ولا أظنُّ أن ابن سلام حين سمع ابن معين، لم يذكُرْ ضريعه البصريّ، وهو بلديُّه، رحل مثله عَن البصرة إلى بغداد أيضًا، وهو «على بن عبد الله بن جعفر السعديّ ، المعروف بابن المديني (١٦١ -٢٣٤هـ)، وكان إمامًا من الجهابذة النقاد للحديث كصاحبه ابن معين، ومن قبلهما صاحبه البصري أيضًا «يحيى بن سعيد القطان» (١٢٠ - ١٨٩)، وكان من سادات أهل زمانه ورعًا وحفظًا وفضلًا وعلمًا، وهو الذي مهِّد لأهل العراق رسم الحديث، وأمعن في البحث عن الثقات، وترك الضعفاء، وهؤلاء الرجال هم الذين أسسوا علم معرفة الرجال والجرح والتعديل، وعلم الموضوع من الحديث على رسول الله ﷺ . وأنا أتوهُّم أن هذا الذي عرفه ابن سلام يومئذ ، قد أثارَهُ إلى أن يؤسِّس هو أيضًا أساسًا لمثل هذين العلمين في ناقلة الآداب والأخبار والشعر، لينفي عن الشعر خَبَثَ ناقلته ورواته. وخبث الموضُّوع على ألسنة شعراء الجاهلية وغيرهم في كتب كانَ قد آذاهُ رؤيتُها وقراءتُها منَّ قبل. ولكن فيما أتوهُّم، كان قد فرغَ من تأليف كتابه «طبقات فحول الشعراء»، الذي بَينٌ منهجه فيه في رسالة الكتاب، وأغفل الحديث عن هذين العلمين، وراودته نَفْسُه أن يَضَع كتابًا آخر غير الكتب الأربعة: «الطبقات»، و «كتاب فرسان الشعراء»، و «كتاب سادات العرب وأشرافها وما قالوه من شعر»، و «كتاب أيام العرب» ، ويجعل هذا الكتاب الخامس مقدِّمة لعلم الأدب والشعر، ويذكُر فيه الموضوع على شعراء العرب، ثم يبيِّن طبقات علماء الشعر وجهابذته ونُقَّاده، ويذكر الكذابين والوضَّاعين من الرواة والمؤلفين للكتب في زمانه، على الوجه الذي ذكُّره به يحيى بن معين وابن المديني في تأسيس علوم الحديث . . ولكن ابن سلام كان قد أُسنَّ وطعن في التسعين، فصارَ على عجل من أمره، وهو بين حاديين حثيثين: حادي العُمر الذي لا ينقطِعُ مُحداؤه، وحادي العِلَّة المُدْنية إلى العجز عن إتمام نيته. فلمَّا عاد إلى كتابة النسخة الثانية من «كتاب طبقات فحول الشعراء» ، وهو كما ذكرت آنفًا ، قد فرغَ منها قبيل وفاته بأيام، خافَ أن يسبقه الأجلُّ وهو يسمع حُداءَ الحاديين الحثيثين، فلم يكد يشرع في كتابة الطبقات أو كتابة المقدمة، ويبلغ آخر الفقرة الثانية: «فبدأت بالشعر» وكاد يكتب «ففصَّلتُ الشعراء من أهل الجاهلية» ، جَزعَ ووضع القَلَم يؤامر نَفْسَه: أيمضى في الكتابة حتى يفرغ من كتاب الطبقات ثم يكتب هذا الكتاب الذي لا غني عنه في علم الشعر والشعراء، أم يكفُّ، ويضَعُ شيئا موجزًا لا غنى عنه في شأن الموضوع على الشعراء، وفي شأن طبقات العلماء أهل الرواية الصحيحة، وتفصيل شأن الوضاعين والكذابين من رواة الشعر والأخبار؟ وحَارَ وبلغت منه العلة ، فعزمَ عزمًا قاطعًا على أن لا يُحْلِي الكتابَ من ذلك، فإنَّه لا يضمن السُّعة في الأجل، ولا إفاقة العِلَّة مع علوِّ السَّن وضعف البدن، وتقطُّع الهمة، فعزم عزمًا، وهجم على الأمر هجومًا، ولم يبال أن يُقْحم، ما يريدُ بين الكلامين المتصلين المترابطين إقحامًا، فبدأ الفقرة الثالثة، بقوله: «وَفَى الشَّعْرِ مُصنوع مُفتعلُّ مُوضُوع لا خير فيه .....»، وعَجِلَ عجلًا شديدًا فيما كتب حتى كاد يضطرب الأمر في هذه الفقرات، من الثالثة إلى الفقرة الثالثة عشرة. ثم عَجل أيضًا فأتبع ذكر الموضوع، بذكر طبقات علماء البصرة من أهل العلم والرواية الصحيحة ، فذكر من ذكر ، ثم ضعف بأخرة في آخر فقرة بعد أن مضى على سننه من الفقرة الرابعة عشرة إلى الفقرة الثلاثين، فاختصر الكلام اختصارًا شديدًا، فقال: «وكان الأصمعيُّ وأبو عبيدة من أهل العلم، وأعلم من وردَ علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي». فانظر إلى هذا الإيجاز في ذكر الأصمعي وأبي عبيدة ، وهما شيخاه وصاحباه! ثم انظر إلى عجلته وخوفه من تفلُّت الأمر، فاقتصر من كلِّ علماء الكوفة على رجل واحدٍ من كثير ممن ورد عليه بالبصرة من علماء الكوفة! رأى الأمر قد طال ، فعاد يصل الفقرة الثانية بأختها في الفقرة الحادية والثلاثين ، بلا رابط وبلا دلالة على الانتقال من كلام إلى كلام فكتب: «فقصلت الشعراء من أهل الجاهلية ......» ورأى ابن سَلّام أنه قد أبْلَى وبلغ بهذه الفقر المقحمة ، غاية تقصر عما في نفسه ، ولكنها على حُلّ حالٍ دليلٌ على ما كان يحبُ أن يستوعبه ويفيض فيه ، ليؤسِّس لعلم الأدب والشعر والأخبار ، أساسًا صحيحًا ، بتفصيل الوضع على الشعراء ، والتمييز بين رواة الشعراء والأخبار ، ليُغرف بذلك سقيمها من صحيحها ، كالذى فعله يحيى بن معين ، وعلى بن المديني ، وأحمد ابن حنبل ، والأئمة الجبال الشوامخ الذين ضبطوا عِلْم الأمَّة بعد أن تلقّوه من بحور العلم ، منذ أول عهد الإسلام ، إلى أن صار إليهم في مطلع هذا القرن بحققه أحدٌ من بعده ، في تأسيس هذين العلمين ، وإن كانوا قد بلغوا الغايّة بعد يحققه أحدٌ من بعده ، في تأسيس هذين العلمين ، وإن كانوا قد بلغوا الغايّة بعد ذلك في تمحيص الشعر والأخبار فيما كتبوا ورَوَوْا . أما تأسيس علم للموضوع ، وعلم لرواة الأخبار والشعر ، فقد ذهب ، كما ذهب ما كان في صدر محمد بن وعلم لرواة الله مما لم يكتبه .

\* \* \*

أظنُّ أنِّى قد بلغتُ بعضَ الصواب في الاستدلال على أن هذه الفقر من (٣٠-٣) من كتاب الطبقات، مقحمة إقحامًا مفاجئًا غريبًا على سياق رسالة كتابه، التي أراد أن يبينِّ فيها منهجه. وأظنُّ أيضًا أني بيّنتُ بعض البيان بعض ما أثارهُ إلى العجلة وترك المبالاة بما يحدثُه هذا الإقحام. ولكن هذا وحده لا يكاد يكفى، فيما أرجِّح في فهم الفقرة الثالثة، وهو غير كافِ بلا ريب في تصحيح عبارة ابن سلام التي زعمتُ أنه جَارَ فيها بالعَجلَةِ عن الصوابِ. وإذا كان نزوله بغداد، ولقاؤه ابن معين يفاوضه الحديث والعلم والشعر أيضًا، قد كشف له عمًا فعل أهل الحديث في تأسيس علل الحديث وعلم موضوع الأحاديث، وعلم نقلة الأخبار وتعديلهم وتجريحهم = فإن ذلك أيضًا قد ذكّره بقديم ما في نفسه، مما كان يحبُّ أن يقضيه فتطاول عليه العُمُر ولم يفعل،

وقديمُ ما في نفسه، كان، بلا شك، خُلاَصة لقائه الشيوخ العلماء القدماء، وما سمعه منهم في تمحيص أخبار العرب وأخبار شعرائها وفرسانها وساداتها وأيامها، وما وقف عليه هو بالتنبُّع والحوار والمقارنة، حتى صارت له بذلك خبرةٌ وثقافة. بيد أن هذا وحده لم يكن هو كُل الذي هاجه بعد لقاء ابن معين، حتى يعزمَ على تصنيف كتاب أو كتب يؤسس بها قواعد علم الأدب وعلم الشعر وعلم الأخبار، وتبيئن مراتب العلماء ونقلة الأخبار والشعر، وتميّز تقاتِهم وعدُولهم وأهل الحفظ والتثبت والإتقان واليقظة منهم، من أهل الغفلة، وسوء الحفظ، والكذابين والوضاعين الذين يخترعون الأخبار، وحملة الغثاء المصنوع المفتعل الذي ينسبونه إلى الشعراء وأصحاب البيان من الفرسان والسادات.

وابن سلام رحمه الله لم يُخلنا من الدلالة على بعض ما هاجه ، فإنه حين قال : « وفى الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع » ، قال بعد ذلك : « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ... » ، فهؤلاء « القوم » هم الذين هاجوه ، وهاجه تداولهم هذا الغثاء ، ولعلَّه رأى ذلك قد ذاع وتداوله ناس أيضًا في أحاديثهم ممَّن ليسوا من جهابذة الشعر . ولم يذكر ابن سلام مَنْ هم هؤلاء القوم ، بيد أنه دلّنا بعد قليل على واحد مِنْهم ، وكان مع ذلك إمامًا من أثمة العلم الكبار ، وفي السّير خاصة ، وهو حين قال في أول الفقرة السابعة : « وكان مِمَنْ أفسَد الشعر وهجنه وحمل كُلَّ غثاء منه ، محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخرمة ، وكان من علماء الناس بالسير » . فهل نستطيع أن نعرف سائر هؤلاء القوم الذين عناهم ؟ وما هي كتُبُهم ؟ وما كان فيها من الغثاء المصنوع الذي أفسدَ الشعر وهجنه وعلى أي صورة كان تصنيف ما في هذه الكتب ، وما تحتويه من شعر وغثاء وعلى أي صورة كان تصنيف ما في هذه الكتب ، وما تحتويه من شعر وغثاء مصنوع ؟ نعم ، بعض ذلك ممكن . فمن الذين كانت لهم كُتُبٌ ، عرفها بن مصنوع ؟ نعم ، بعض ذلك ممكن . فمن الذين كانت لهم كُتُبٌ ، عرفها بن مصنوع ؟ نعم ، بعض ذلك ممكن . فمن الذين كانت لهم كُتُبٌ ، عرفها بن مصنوع ؟ نعم ، بعض ذلك ممكن . فمن الذين كانت لهم كتُبٌ ، عرفها بن مصنوع وغيره من أهل زمانه ، نَفَر لا نستقصيهم ، ولكن نغلًا منهم :

(١) عُبَيْد بن شَرِيَّة الجرهميِّ ، الذي استقدمه معاوية رضى الله عنه من صنعاء ، فسأله عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وتوفى سنة ٦٧،

وله من الكتب «كتاب الأمثال»، و«كتاب الملوك وأخبار الماضين» وكأنه هو المطبوع مع كتاب «التيجان» باسم «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي، في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها»

(۲) ووَهْب بن مُنَبِّه الأنبارى الصنعانى ، ولد سنة ٣٤ وتوفى سنة ١١٤، وله كتب ، منها «كتاب الملوك المتوَّجة من حمير وأخبارهم». وكان تابعيًّا لقى أبا هريرة وأبا سعيد الخدرى وابن عباس ، وكان ثقة ولكنه كان يقرأ الكتب وكان حفيًّا بأخبار الماضين ، وسنذكره أيضًا عند ذكر حفيده بعد.

(٣) ومحمد بن إسحق، صاحب السّير، وقد ذكره ابن سلام، ولد في نحو سنة ٨٥، وتوفى سنة ١٥١، وكان ثقة مشهورًا، وانتهى إليه العلم، ولكن وضع منه أنه كان رجلًا يشتهى الحديث والأخبار، ويأخذ كتب الناس ويضعها في كتبه، قال النديم في الفهرست: «كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها، ويُسألُ أن يدخلها في كتابه في السيرة، فيفعل، فضمّن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر،». وله من الكتب أيضًا «كتاب المبتدأ».

(٤) والْشَّرْقِيُّ بن القُطاميّ (الوليد بن الحصين) الكلبيّ، المتوفى سنة ١٥٥، ولم أعرف له كتابًا، إلّا أنه كان صاحب سَمَرٍ وحديث، وأخذ عنه الناس في كتبهم أحبارًا جمةً. وقد روى الأصمعى قال: حدثنى بعض الرواة قال: قلت لشرقى بن القُطاميّ: ما كانت العربُ تقرأ في صَلاَتها على موتاها؟ (يعنى في الجاهلية) فقال: لا أدرى! قلت: كانوا يقرأون:

وما كُنْتَ وَكْوَاكًا ولا بِزَوَنَّكِ وَوَيْدِك حتى يَبْعَثَ الحْلقَ باعثُهْ

قال: «فإذا هو يوم الجمعة يحدِّث به في المقصورة». وهذا البيت لامرأة ترثى زوجها. و«الوكواك» الجبان، و«الزَّوَنَّك»، القصير الدميم.

( ٥، ٦) ومحمد بن السائب الكلبيّ المتوفى سنة ١٤٦، وولدهُ ( هشام بن محمد بن السائب الكلبي » المتوفى سنة ٢٠٤، والذى أكثر الرواية عن أبيه . وكتبُ هشام كثيرة جدًّا فى أخبار العرب وأيامهم ، وفى أخبار الشعر ، وفى الأخبار والأسمار ، وفى الأنساب . وكانت فى هشام غفلة شديدة ، ومن ذلك

ما رواهُ الخطيب عن أحمد بن إبراهيم قال: «دعاني ابن الكلبيّ يومًا فأقعدني في بيت خيش فَرْشُه ميسنانيّ، وأطعمني في يوم حارّ فجلية، ثم قال لي: لمّا مات أبي ندمَ المأمون أشدَّ ندامةٍ في الدنيا! قلت: أكان عذَّبه حتى مات؟ قال: لا. قلت: فحبسه في ضيّتٍ؟ قال: لا. قلت: فإنّما مات حتف أنفه! قال: نعم. قلت: فما سبب ندامته؟ قال: لا والله لا أدرى، هكذا حدّثني سعدً غلامنا!

(٧) وعلَّانٌ الشعوبيّ، وكان على عهد الرشيد، وكان منقطعًا إلى البرامكة، وكانت له كتب في المثالب، مثالب العرب.

( ۸، ۹) وإدريس بن سنان ، وولده عبد المنعم بن إدريس بن سنان ، وجده لأمّه وهب بن منبه ، وكان يروى أيضًا كتب جدّه ، وكتب أبيه ، وله هو كتب ، منها «كتاب المبتدأ» له ، ولأبيه ، وكان عبد المنعم يتلقَّط كتب السير يشتريها من السوق ويرويها ، ما سمعها قطَّ ، ولا سمع من أبيه ولا من غيره ممن يروى عنهم كتبهم . ومات عبد المنعم سنة ٢٢٨. وقد قارب المئة .

وغير هؤلاء القوم كثيرٌ قبل ابن سلام وبعده ، ولست أشكُ أنهم هم الذين عناهم بقوله في الكلام المصنوع : «قد تداوله قوم من كتابٍ إلى كتاب » . ولم يبق في أيدينا ، فيما أعلم ، من هذه الكتب وأشباهها إلا ثلاثة كتب : الأول كتاب عبيد بن شرية الجرهميّ ، والثاني كتاب وهب بن منبه في الملوك المتوَّجة من حمير وأخبارهم ، وهو المطبوع في الهند باسم «كتاب التيجان» ، وهو برواية عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، نزيل مصر المتوفي سنة ١١٨ مهذب سيرة ابن إسحق = عن أسد بن موسى الأموى (المعروف بأسد السنة) ، المولود بالبصرة سنة ١٣٦ ، والمتوفى بمصر سنة ٢١٦ = عن عبد المنعم بن إدريس ، عن جدّه لأمه وهب بن منبه = والثالث كتاب السيرة لابن إسحق ، بعد أن هذَّبَهُ وحذف منه شيئًا كثيرًا ، مهذبه عبد الملك بن هشام . وهذه الثلاثة على قلتها كافيةٌ في معرفة ما نحنُ في حاجة إليه لفهم ما أراده ابن سلام في حديثه عن الكلام المصنوع المفتعل الموضوع على الشعراء .

أما الكتاب المنسوب إلى عبيد بن شرية الجرهميّ ، فإنا نجد أكثر ما فيه من الكلام الغتّ المصنوع المفتعل ، الذى وصفه ابن سلّام فأجاد صفته . قدرًا كبيرًا منسوبًا إلى عاد وثمود المعرقين في القدم في ملوك حمير الفانين ، ونجد معه أيضًا قليلًا جدًّا من غثاء منسوب إلى الشعراء المعروفين ، منهم امرؤ القيس بن حجر الكنديّ (وذكره الطوسيّ في المنحول من شعره) وأمية بن أبي الصلت ، وحسان ابن ثابتٍ ، وأبياته من صحيح شعره .

أما كتاب وهب بن منبه المعروف اليوم؛ بالتيجان، فإنّ ابن هشام راويه، لم يفعل فيه ما فعل في سيرة ابن إسحق، حين عرضها على العلماء بالشعر، فنفى منها ما أنكروا، وأثبت أكثر ما صححوه = بل ساقه بغثائه كله رواية عن وهب. وفي كتاب التيجان غثاء كثير أيضًا منسوب إلى عاد وثمود وغيرهم من الأمم البائدة التي لم يبلغنا بيقين شيء من شعرهم، كما صدق ابن سلام فيما قال: «لم يرو قط عربي منها بيتًا واحدًا، ولا راوية للشعر، مع ضعف أسره وقلة طلاوته»، ولكنه في خلال هذه الأخبار التي ساقها شعر صحيح قائم على حياله غير مختلط بغيره، وشعر صحيح أُدخِل في غثاء مصنوع. فمن الصحيح عالم وحده على حياله شعر لهير العبسي (٥٦) وشعر للبيد (٢٦) وشعر للربيع بن ضبع الفزاري (١١٨ - ١٢٢، ١٢٤) واللامية التي رُثي بها تأبيط شرًا (٢٤٢) = أما الصحيح الذي دخل في الغثاء فكثير فكأبيات في قصيدة ذكرها وهب (٢٢٣) ونسبها لشمر يرعش بن ناشر النعم، ونسبها عبيد ابن شرية (٢٦٤) مع اختلاف كثير جدًا، لتبع ملكي كرب. وهذا ليس استقصاء، ولكنه اختيارٌ للدلالة على ما في هذه الكتب من الشعر الصحيح المقحم في الغثاء، ومن الشعر الصحيح المقحم في الغثاء، ومن الشعر الصحيح المقحم في الغثاء، ومن الغثاء المحض.

أما الذي يوضح الأمر توضيحًا كاملًا فهو ما بقى عندنا من سيرة ابن إسحق، بعد أن عرضها عبد الملك بن هشام على العلماء بالشعر ونفى أكثر خبثها. وابن سلّام حين ذكر المصنوع، الذي تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، ضرب المثل بكتب محمد بن إسحق، قمن الواضح أن كلامه عن المصنوع يؤول

على الأرجح إلى مثل ما فى هذه الكتب من الشعر، ومن الغثاء المصنوع. ونحن نجد فى سيرة ابن إسحق، التى هذبها ابن هشام، أوّلا: شعرًا صحيحًا معروفًا لأصحابه من الشعراء، مما رواه العلماء بالشعر، وهو كثير.

ونجد أيضًا شعرًا صحيحًا قد نحلِط بغناءٍ، فلما عرضه ابن هشام على العلماء، ميَّزُوا له هذا الصحيح، ونفوا الغناء، ومثال ذلك قصيدة أمية بن أبى الصلت، أو أبيه أبى الصلت التي يقول فيها: (ابن هشام: ١: ٢٧-٦٧).

ليطلُب الوِترَ أمثالُ ابن ذِي يَزَنِّ ريَّم في البحر للأعداءِ أحوالا

فلما فرغ قال: «هذا ما صحَّ له مما روى ابن إسحق منها، إلَّا آخرها بيتًا قوله: «تلك المكارم لا قعبان من لبن»، فإنه «للنابغة الجعدى». فهذا من الصحيح الذى خلط بالغثاء، وهذا في التيجان أيضًا ص: ٣٠٧،٣٠٦. ومن الغثاء المصنوع ما ذكره ابن إسحق في السيرة، فذكر منه ابن هشام هذا البيت:

حنقًا على سبطين حَلًّا يشربًا أَوْلَى لهم بعقاب يوم مُفْسِدِ

فقال ابن هشام: «الشعر الذي فيه هذا البيت مصنوع، فذلك الذي منعنا من إثباته»، والشعر بتمامه رواه في التيجان (١١٢ - ١١٤) في أبيات طويلة. والأمثلة كثيرة جدًّا في كتاب السيرة وكلها دال على وجود هذه الأصناف الثلاثة في الكتب. الشعر الصحيح، والشعر الصحيح المخلوط بالغثاء، والغثاء المحض. وحسبنا هذا الآن.

فإذا كان هذا صحيحًا ، وهو صحيح إن شاء الله ، وكانت صورة هذه الكتب عند ابن سلام ، كالذى عندنا اليوم من بقايا هذه الكتب التي أشار إليها بقوله : « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب » فقد وَصَلْنا إلى شيء مُهِمٍّ جدًّا ، يجعل تفسير كلام ابن سلام في الفقرة الثالثة واضحًا كل الوضوح . ويزيل الاختلال الواقع في ضمائر هذه الفقرة . فقد صحّ عندنا أن في هذه الكتب ثلاثة أصناف :

الأول: شعر «صحيح» يعرفه أهل العلم والرواية الصحيحة عن أهل البادية، وهو قائم على حياله، في هذه الكتب.

الثاني: شعر «صحيح»، يعرفونه أيضًا، ولكنه خُلط بغثاء مصنوع ليس بشعر، وإنما هو كلامٌ مؤلف معقود بقواف.

الثالث: غناء مصنوع ، ليس بشعر . كثيرٌ لا خير فيه . وقد وصفه ابن سلامٍ وأجادَ صفته .

قال ابن سلام: «فبدأنا بالشعر، وفي الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع كثير لا خير فيه ... وقد تداولَهُ قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضُوه على العلماء، وليس لأحدٍ – إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيءٍ منه – أن يقبل عن صحيفة أو يروى عن صحفى ».

وقد أثبتنا بالتحليل إثباتًا لا يداخلُه شَكُّ، أن هذا القول محالٌ أن يكون مرادًا به «الشعر» كما مرادًا به «المصنوع» وحده، وأشدُّ استحالةً أن يكون مرادًا به «الشعر» كما نعرفُه ببديهة اللغة. وإذنْ، فلم يبق عندنا إلَّا الصنف الثاني وَحْدَهُ، وهو: الشعر الصحيح الذي يعرفه العلماء، ولكنّه خُلِط بمصنوع ليس بشعر، في قصيدة واحدة . فلننظر الآن هل تستقيم الفقرة، وتصبح كلامًا غير متخالِف ولا متضارب؛ إذا عادَت الضمائر الأربعة إلى هذا الصنف وحده؟ فالضمير الأول: «قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب»، واضح لا يحتاج إلى بيان.

والضمير الثانى: «ولم يأخذوه عن أهل البادية»، صحيح أيضًا، فإنهم لو كانوا أخذوه عنهم لما خالطه هذا الغنّاء، ولكان مطابقًا لما عند العلماء بالشعر بلا زيادة، فقد أخذوا جميعًا من مصدر واحد. والضمير الثالث: «ولم يعرضوه على العلماء»، يجعل الكلام بعودته إلى الصنف الثاني صحيحًا ذا فائدة، فإنه إذا عُرِض على العلماء، استخلصوا الصحيح المعروف عندهم، ونفوا الغثاء الباطل الذي خُلط به. والضمير الرابع في قوله: «وليس لأحد - إذ أجمع أهل العلم على إبطال شيء منه - أن يقبل عن صحيفة، أو يروى عن صحفى»، إذا هو عاد أيضًا على هذا الصنف، استقام معنى الكلام، وصار تمامًا للكلام الأول بلا غضاضة، وصار أيضًا للتبعيض في قوله: «على إبطال شيء منه»، معنى، بلا غضاضة، وصار أيضًا للتبعيض في قوله: «على إبطال شيء منه»، معنى،

إن إجماع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطالِ هذا البعض، مفهوم، بل لا وجه لإجماعهم غير هذا الوجه، وإذا كان هذا الإجماع، فإنه ليس لأحد بعد ذلك أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي، لأنه إذا فعل ذلك، وهو غير بصير برواية شعر العرب، كان خليقًا أن يُفْسِد الشعر الصحيح ويهجّنه برواية هذا الغُتَاء، كأنّه جزءٌ من الصحيح المعروف. ولذلك قال ابن سلام في الفقرة (٧٣) بعد ذلك بكثير: «وقد وجدنا رواة العِلْم يغلطون في الشعر، ولا يضبطُ الشعر إلا أهله».

وإذن ، فمعنى قوله: «وفى الشعر مصنوع مفتعل ...» هو فى الحقيقة: «وقد دخل بعض هذا الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه» ، ويبقى إذن لفظ «الشعر» على بديهته المعروفة ، ويبقى أيضًا أنّه لا يجعل هذا المصنوع «شعرًا» ، لأنه بيّنَ بعد أنه «ليس بشعر، بل هو كلامٌ مؤلف معقود بقواف، وهو ليس قِسْمًا من «الشعر» ولا يقع عليه هذا اللفظ وقوعًا صحيحًا عند ابن سلام.

وسببُ هذا الخلَلِ في العبارة هو ما أفضتُ في بيانه عن الحالة التي كان عليها ابن سلام، وهو يعيد كتابة النسخة الثانية من كتابه، فأقحم هذا الفَصْل عن الموضوع، والفصل الذي يليه عن العلماء بالشعر والعربية، إقحامًا أخَل بالكلام، وحيَّرنا في فهمه. ولكن أشدُّ من هذا أنّ كلام ابن سَلَّمٍ في رسالة كتابه قد كان سَبَبًا في فسادٍ كبير أصاب شعر العرب على يد أوّل المشككين في الشعر الجاهليّ النافين لصحته، حين غابت هذه الفقرة من طبعة الأعجمي يوسف هل = وحين ظهرت في نسختنا، وفيها هذا الاضطرابُ والحلل، لم يوسف هل = وحين ظهرت في نسختنا، وفيها هذا الاضطرابُ والحلل، لم استمرَّ الأمرُ بعد ذلك على اتهام ما بأيدينا من شعر العرب الذي نقله إلينا العلماء المحققون الجهابذة، بأن فيه مصنوعًا مفتعلًا، ثم زاد الأمرُ حتى صارَ بعضُ الباحثين ينفي من هذا الشعر ويُثبت بلا بينة ولا دليل، إلا خواطر الاستحسان الباحثين ينفي من هذا الشعر ويُثبت بلا بينة ولا دليل، إلا خواطر الاستحسان والاستهجانِ كيف اتّفقَ. وهذا أسلوب غير مرضيً ولا صالح. ولكن بقيت

الجملة الأخيرة في ختام هذه الفقرة ، التي يقول فيها ابن سلام : «وقد اختلفت العلماء بعدُ في بعض الشعر ، كما اختلفوا في سائر الأشياء ، فأمّا ما اتفقوا عليه ، فليس لأحدِ أن يخرجَ منه » . وبيِّن بعد هذا أن لفظ «الشعر » ، هو على حاله في بديهة اللغة ، بلا ريب في ذلك . وكانت من تمام حديثه ، لأنه حين ذكر إجماع العلماء على إبطال بعض هذا الخليط ، وأنه ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي = أرادَ أنْ يعقب عليه بضرب آخر من اتفاق العلماء على بعض الشعر وعلى اختلافهم فيه ، وبين أن الذي اتفقوا عليه ليس لأحدِ أن يخرجَ منه . أما الذي اختلافهم فيه ، فله حُكْمٌ آخر . ولكن بَيِّن أن هذا لا يقع عليه بين العلماء اختلاف » بمعزل عن الكلام في «المصنوع الموضوع» لأنه لا يقع عليه بين العلماء اختلاف البتّة ، بل يقع إجماعهم على بُطْلانه بلا نزاع بينهم في ذلك . وللحديث عن هذا موضع آخر إن شاء الله ، هو به أليق .

من خلال بَحْثى للكشف عن أحد الأوجه الخمسة الملثّمة ، فى الفقرة الثالثة من رسالة ابن سلام فى صدر كتابه «طبقات فحول الشعراء» ، وهو «وجه الشعر» ، سقط اللثام عن وجه آخر ، وانكشفت بعضُ معارفه ، وهو: من هم القوم الذين تداولوا بعض الشعر الصحيح مخالطًا لكلام مصنوع مفتعل ليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف كقوافيه . وعرفنا بعض هؤلاء : عبيد ابن شرية الجرهمى ، ووهب بن منبه ، وابن إسحق صاحب السيرة ، والشرقى بن القطاميّ ، وابن الكلبيّ ، ولهم أشباة كثيرة ممن كانوا يسوقون أخبار الجاهلية القديمة ، ولم يأخذوا ما فيها من الأشعار عن أهل البادية ، ولم يعرضوا هذه الأشعار على العلماء بالشعر ، فيميّزوا لهم الصحيح المعروف لأصحابه من الأشعار على العلماء بالشعر ، فيميّزوا لهم الصحيح المعروف لأصحابه من الشعراء ، مما خولط به من الغثاء المولّد المفتعل . وهؤلاء هم الذين أثبتوا تلك الأشعار في كتب تداولوها من كتاب إلى كتاب ، أو تناقلوها رواية ، ثم نقلت عنهم وأثبتت في الكتب .

وبقى بعد هذا وجه ثالثٌ من الوجوه الخمسة الملثمة، وهو الذي جاء في كلام ابن سلام حيث يقول: «وليس لأحد، إذا أجمع أهل العلم على إبطال

شيء منه، أن يقبلَ من صحيفة أو يروى عن صُحُفِيٌّ »، فذكر «الصحيفة» و «الصحفيي»، و «الصحيفة» في العربية، هي كُلُّ ما يكتب فيه، وقد جاءت على هذا المعنى في كتاب الله تعالى في آيات. يقول الله تعالى في سورة طه (١٣٣) يذكر مقالة مشركي قريش وغيرهم من العرب: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا ا بِعَايَةٍ مِن زَبِّهِۦ أَوَلَمْ تَأْمِم بَيْنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَى ﴾ ، و«الصحف الأولى » هي كتب الأنبياء في أمَم قَد خَلَتْ من قبلهم، كصحف إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وهي المذكورة المبيّنة في قوله تعالى في سورة النجم ٣٦، ٣٧: ﴿ أَمْ لَمْ يُبْنَأُ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿ إِنَّ اللَّهِ مَ الَّذِي وَفَّ ﴾ ، وفي قوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَلَذَا لَهِي اَلصُّحُفِ اَلَّأُولَىٰ ﴿إِلَّهُا صُحُفِ إِبْرَهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وسمّى الله سبحانه القرآن العظيم «صُحُفًا» في قوله في سورة عبس: ﴿ كُلَّا إِنَّهَا نَذَكِرَهُ ۗ إِنَّ الْمَكُرَةُ اللَّهُ اللَّالَّالِي اللَّهُ اللَّهُ اللّلْمُ اللَّلَّا اللَّهُ اللَّلَّالِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّا مَّرَهُوعَةِ مُطَهَّرَةٍ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ لِمَالَةٍ ﴿ إِنَّ كِرَامٍ مَرْزَةٍ ﴾ ، وكذلك قال في سورة البينة: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَنْلُوا صُحْفًا مُّطَهَّرَةً ﴿ إِنَّا فَنِهَا كُنْبٌ قَيِّمَةٌ ﴾. ولما أفتى أبو بكر رضى الله عنه بكتابة القرآن سمّى كتاب الله «مُصْحَفًا»، لأنّه عندئذ سِفرٌ جامعٌ للصُّحِف بين دَفَّتين، وكُلُّ مُصْحفِ كتابٌ. وقد جاء ذكر « الصحيفة » في شعر كثير من أشعار العرب ، وفي أخبارهم ، وأشهرها « صحيفة الملتمس » التي يقول فيها الفرزدق لنفسه:

أَنْقِ الصَّحِيفَةَ يا فرزْدَقُ، لا تَكُنْ نَكْدَاءَ مثلَ صحِيفة المُتَلَمِّسِ

فكان مفهومًا من نَهْى ابن سلام كُلَّ أحدِ أن يقبلَ من صحيفة ، أنّه نهى عن قبول شعر العرب من كتاب مكتوب ، وهو يعنى بذلك ما ذكره قبلُ حيث قال : « وقد تداولَهُ قومٌ من كتاب إلى كتابٍ » ، ولا يَعْنى كُتُبَ العلماء بالشعر ، لأنها غير داخلةٍ في حديثه هنا عن الموضوع المفتعل المصنوع .

وأمَّا «الصُّحُفِيِّ»، فهو الذي يَرْوِي هذا الغثاء من قراءة تلك الصحفِ،

فنهى ابن سلام عن الرواية عن «الصحفى» نهى عن الأخذ والرواية عمّن يعتمد فى رواية الأشعار على هذه الكتب المؤلفة التى فيها شعر «صحيح» خولط بغتٌ من الكلام ردىء، منسوبًا إلى المعروفين من شعراء العرب، فإن شرط رواية شعرهم أن يأخذه سماعًا من أهل العلم والرواية الصحيحة. وقد بيّن ذلك ابن سلّم نفشه حيث قال فى آخر الفقرة الثالثة عشرة: «فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحق، ومثل ما رَوَى الصَّحفيون، ما كانت إليه حاجة، ولا فيه دليلٌ على علم» وقد روى ابن سلام وغيره أن ابن إسحق قيل له فيما يرويه من هذه الأشعار، فقال يعتذر منها: «لا عِلْمَ لى بالشعر، أتينا به فأحمله» ولم يكن ذلك له عُذرًا، كما قال ابن سلام. وهذا قدرٌ كاف، إن شاء الله، فى الكشف عن هذا الوجه، ومع ذلك فقد بقيت أشياء كان يمكن أن تدرسَ فى أمر هؤلاء القوم، ولكنها تخرج بى عن الحدِّ الذى وضعتُه فى دراسة رسالة ابن سلام فى طحر كتابه الطبقات.

泰 恭 癸

بقى إذنْ من الوجوه الخمسة الملثمة وجهان ، يحتاجان إلى فَضْل بحثٍ وتأمُّل ، لكى نبلُغ الغاية فى إزالة كلِّ لَبْس يعرضُ فى فهم كلام ابن سلام ، وقد عَرَضَ هذا اللَّبس ، فأدّى إلى أكبر الفسادِ فى شأن الشعر الجاهلى . وأول هذين الوجهين: «العلماء» ، الذين كان ينبغى على الذين تداولوا الأشعار المختلطة من كتاب إلى كتاب ، أن يعرضوها على هؤلاء العلماء ، والذين سماهُم ابن سلام أيضًا «أهل العلم والرواية الصحيحة ، الذين إذا أجمعوا على إبطال شيء من هذا الخليط ، لم يكن لأحدِ بعد إجماعهم أن يقبلَ من صحيفة أو يروى عن صحفيّ » وثانى الوجهين: «أهلُ البادية » ، الذين قال ابن سلام إن هذه الأشعار لم تؤخذ عنهم .

ذكرتُ قبلُ أن ابن سَلَّام إنما أَعْجِل عن أناته ، فأقحم هذه الفِقَر من الفقرة الثالثة إلى الثلاثين ، لأنه كان قد بدا لَهُ أن يتمِّم تأسيس «علم الأدب والشعر» ، بتأليف كتب عزم على أن يؤلفها بأخرة بعد أن طعن في التسعين .

وهو ببغداد، وأنه حين لقى يومئذ يحيى بن معين وأضرابه من أئمة الجرح والتعديل، الذاتين عن سنة رسول الله على أراد أن يجعل المدخل إلى هذا العِلم كتابًا ككتب رجال الشنة فى بيان وجوه الزيْف والتكذّب على حديث رسول الله على أله ومنازل سائر النقلة من الحجة والثقة والضعف، وما عُرِف من الكذابين والوضاعين. وقلت أيضًا، إنه عندما بدأ إعادة كتابة النسخة الثانية من «طبقات فحول الشعراء»، أحس بالخوف أن يُعْجِله الأجل عن تأليف كتاب جامع قائم برأس يجعله مدخلًا لعلم الأدب والشعر، فأسرع يجمع فى هذه الفقر القلائل من الثالثة إلى الثالثة عشرة خلاصة بعض ما يريد أن يقوله عن الكلام المصنوع المفتعل الموضوع منسوبًا إلى الشعراء، ثم خلاصة موجزة أُخرى فى مراتب العلماء بالشعر من الفقرة الرابعة عشرة إلى الفقرة الثلاثين.

وبدأت الفقرة الرابعة عشرة بقوله: «وكان لأهل البصرة في العربية قُدْمة (أي تقدَّم وسبقٌ)، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية»، ثم سَرَد مُوجَز أسماء من اختار ذكرهم من علماء البصرة، وقليلًا من أخبارهم، حتى انتهى، فختم الفقرة الثلاثين بذكر رجل واحد من علماء الكوفة فقال: «وأعلمُ من وردَ علينا من غير أهل البصرةِ المفضَّل بن محمد الضبي الكوفيّ»، ولم يَزِدْ على ذلك شيئًا البتة، مجرّدُ ذكر، مع أن المفضّل قديمٌ في طبقة يونس بن حبيب والخليل، لأنه توفي بعد سنة ١٧٠ تقريبًا، وكأنه لم يَرد عليهم البصرة إلا قبل ذلك، وابن سلام يومئذ في نحو الثلاثين من عمره، فلم يذكر أحدًا من الكوفيين غيره وردَ البصرة إلى بغداد، وهذا عبيب من فعل ابن سلام!!

وظاهر إذنْ أنه أرادَ بقوله «العلماء» في أول هذه الفقرة الثالثة ، مَن ذكرهُمْ هو من أئمة العربية من أهل البصرة ، وبعض من لم يذكُرُ منهم ، وظاهرٌ أيضًا أنّه لم يَحْفِلْ كثيرًا بذكر علماء الكوفة ، فاقتصر على رجل كوفي واحدٍ كان قدم عليهم البصرة ، ورآه هو وسمع منه في صدر حياته . ولا أظنُ أنّه أراد بذلك

أن يستوعبَ القدحَ في علماء الكوفة، أو أن ينفي عنهم العلم بالشعر نفيًا شاملًا ، بل احتمله ضربٌ من العصبيّة لأهل بلدته التي نشأ فيها وعاشر أهلها وعلماءها أكثر من ثمانين سنة. فإنه لما نزل بغداد سنة ٢٢٢، واحتفي به الناسُ والأشراف والعلماء، رأى فيما رأى طبقةً من أهل العِلْم من البغداديين، قد سوُّوا في العِلْم بين علماء البصرة وعلماء الكوفة، وأخذوا عن هؤلاء وهؤلاء، ووازنوا بين أقوالهم، ومَيَّلوا بين مذاهبهم، فَرجَّحوا مرة مقالة أهل البصرة على أهل الكوفة، ورجَّمحوا أخرى مقالة أهل الكوفة على أهل البصرة، فساءَت ابنَ سلام هذه المساواة بين علماء البصرة وعلماء الكوفة، وهذا الترجيحُ الذي يؤثر أحيانًا قول أهل الكوفة على قول أهل البصرة، فأرادَ أن يَخُصُّ علماءَ البصرة وحدهم بالفضل كُلِّه ، لُيظهر زهْوهُ بفضل أهل بلدته على الناس وعلى العلماء وعلى العلم. وابن سلام معذورٌ في هذا الزهو، وفي الخيلاءِ بأهل بلدته، لأنه شهد بالبصرة عصرًا زاخرًا يعبُّ عُبَابُه ، عصرًا وضعت فيه أصولُ علوم الإسلام كُلِّها، نعم، كان لأهل الكوفة ولسائر مُذُنِ العربية والإسلام نصيبٌ من هذا البَحْر الرجَّاف، ولكن ابن سلّام رأى أن نصيبَ أهل البصرة هو النصيبُ الأوْفي الذي لا يشاركُهم فيه غيرهم، وكيف لا يكون ذلك كذلك، وهو إمامُ أهل البصرة في زمانه هذا (ما بعد سنة ٢٢٢)، وهو قد جاوز الثمانين من عُمُره، وهو أيضًا الذي عاش بالبصرة ما بين مولده سنة ١٣٩، إلى أن نزل بغداد سنة ٢٢٢، فرأى جبالَ العِلْم جَبلًا بعد جَبل ، سمعهم وَأَخَذَ عنْهم وشهد مجالسَهُمْ . كان قريبًا شاهدًا حاضرًا يرى جَبَلًا من العِلْم تتحدُّر عليه ومنه أمواجٌ بعد أمواج ، يَرد شرائعَها طلاب العِلْم ويصدرون عنها رواءً ، ثم يغيبُ الجَبَل ، وإذا جبلٌ آخرُ يرثُه ويزيدُ عليه، وتتلاطمُ الأمواج، ويتقاصف عليها الؤرَّاد من آفاق الأرض، ثم يغيب، ويقوم غيره. وهكذا دواليك. فقد ابن سلام في صدر شبابه أبا عمرو بن العلاءِ حين هَوَى ، ثُمَّ شمخ عيسى بن عمر الثقفي جبلًا شامخًا تتدفقُ أمواجُه حتى كاد يُنسى أبا عمرو، ثم يذهب عيسى أيضًا، ويأتي يونس بن حبيب، والخليل بن أحمد، ويذهبان، وحالُه عند فقدان كُلّ واحدٍ منهم حال النابغة عندما مات حصن بن حذيفة الفزارى:

يقولونَ: حِصنً! ثم تأتى نُفُوسُهُمْ ولمْ تَلْفِظِ الأرضُ القبورَ، ولم تَرُلْ فعمًا قليل، ثم جاش نَعِيَّهُ

وكيف بحِصْنِ، والجبالُ جُنُوعُ نجومُ السَّمَاءِ، والأديمُ صحيحُ فباتَ ندىُّ القوم وهُو يَنُوحُ

ثم تَنْجلى غمرة الأسى على يونس والخليل، عن زميله وصديقه سيبويه، فإذا جَبَلٌ يؤسِّس علم الخليل ويونس وأبي زيد الأنصارى تأسيسًا لا مثيلَ لَهُ من قبلُ ولا شبيه! كان ابن سلام قريبًا من هذا كُلَّه يراهُ ويَسْمعه، فتأخذ بلُبِّه هذه الأنوار المتلألئة، فيرى البصرة وحدها مَنْبع نور ساطع تَمُوت فيه الأنوار.

فلا جرَم، إذنْ ، أن يكون العلم عنده هو علم البصرة ، والحجة الظاهرة هي محجّة البصرة ، وكُلّ ما سوى البصرة فهو لها تَبعّ . فما هؤلاء البغداديون المحدّثون اللذين يقايسون علماء البصرة بعلماء الكوفة ؟ وما هذا المذهب المبتدع في ترجيح مذهب أهل الكوفة على مذهب أهل البصرة ؟ وأين هؤلاء من هؤلاء ؟ هذا ما أظنّه كان قائما في نفس شيخنا محمد بن سلام رحمه الله ، وهو يكتب هذه الفقر عن مراتب علماء البصرة ، مقتصرًا على واحد من أهل الكوفة .

ولكنه، بلا ريب، حين ذكر العلماء، في أول هذه الفقرة الثالثة، لم يعن إلا العلماء بالشعر، ولذلك قال في أوّل الفقرة التاسعة والعشرين، بعد أن فرغ من ذكر جمهرة من علماء البصرة ومراتبهم: «رُجِع إلى قول الشعر، وإلى قول العلماء فيه، ولكلّ من ذكرنا قولٌ فيه» وهذه كلمةٌ مهمّةٌ جدًّا، لا يجوزُ إغفالها، لأنّى رأيت أكثر أهل العلم قديمًا وحديثًا يظنُّ أن هذه الفقر التي جمع فيها ابن سلام ذكر طائفة من علماء البصرة، وبدأ بذكر أبى الأسود الدؤلي، فقال: «وكان أوّل من أسَّسَ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها»، ثم ختم ذكر العلماء بالخليل بن أحمد الفراهيدي فقال: «ثم كان الخليل بن أحمد منه ومن علله ما لم الخليل بن أحمد ... فاستخرج [من] (١) العروض واستنبط منه ومن علله ما لم

<sup>(</sup>۱) وضعت [من] بين علامتي الزيادة ، كما وضعها شيخنا في الطبقات ص٢٢ [محمود الطناحي].

يستخرج أحد، ولم يسبقه إلى مثله سابقٌ من العلماء كُلِّهم » = أقول يظنُّ أكثر القدماء والمحدثين أنّ ابن سلام كتب هذا وأثبته في كتابه رغبةً منه في ذكر مراتب النحويين البصريين، لأن جملةً من ذكرهم من النحاة المقدَّمين المعروفين، ولجميعهم « في العربية قُدْمة ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية » ، كما قال ابن سلام حين بدأ في ذكر «العلماء» في الفقرة الرابعة عشرة .

وهذا خطأ صِرفٌ، لم يُرِد ابن سلام أن يضع في كتابه شيئًا في مراتب النحويين البصريين. ولو كان ذلك أراد، كان خليقًا أن يختم هؤلاء الذين ذكرهم، لا بالخليل بن أحمد، بل بصديقه وخليله سيبويه، الذي جمع علم الخليل وعلم من كان معه ومن سبقه، وأسَّسَ علم النحو فريدًا على غير مثال سابق، وفي أوّل كتابٍ بَحْرِ جامع، طارت شهرتُه في الآفاق منذ عرفه الناس، إلى أن قصد الناسُ قرينه وصاحبه الأخفش سعيد بن مسعدة (المتوفى سنة ٢١٠) ليقرأوا «الكتاب» عليه، وشهد ذلك ابن سلام نفسه، فهو أحقُّ بأنه يُرْهى به ابن سلام في هذا الموضع، ويختم به ذكر علماء البصرة من النحاة. ولكنه لم يرد النحاة، فلذلك تركه ولم يذكره.

ونعم، كان أكثر الذين ذكرهم في هذا الموضع نُحاةً أئمة، ولكنه لم يُرِد نحوهم، بل أراد علمهم بالشعر. والناسُ قديمًا وحديثًا يتوهمون أنّ النحاة بمعزل عن علم الشعر وروايته، وإذا صحَّ هذا في زمن متأخّر، فإن ذلك الزمان الأوَّل المتقدّم قاضِ على النُّحاةِ بأن يكونوا بالمنزلة العالية من علم الشعر ومن روايته. فإنهم حين أرادوا أن يضعُوا للعربية «نحوًا» جامعًا، على غير مثالِ سابق، لم يكن لهم إلى ذلك سبيلٌ إلّا بتتبُّع كلام العربِ جميعًا، على اختلاف مَنازلهم، واختلاف لهجاتهم، واختلاف لُغَاتِهم واختلاف أزمنتهم منذ الجاهلية القديمة إلى زمانِهم الذي هم فيه، ولا سبيل إلى ذلك إلّا باستقصاء كلامهم، وأهم كلامهم منذ أبي الأسود إلى الخليل، أن يتنبَّعُوا الشِّعر مع التوثَّق من صحته، وأن منذ أبي الأسود إلى الخليل، أن يتنبَّعُوا الشِّعر مع التوثَّق من صحته، وأن ينظروا فيه نظرًا فاحصًا يجمَعُ منذ أبي الأسود إلى الخليل، أن يتنبَّعُوا الشِّعر مع التوثَّق من صحته، وأن

النظائر في كُلِّ بابٍ من أبواب أساليب الكلام وأبنيتها وتصاريفها، لكى يستطيعوا أن يؤسسوا العِلْمَ على أُصُولِ لا تختلفُ ولا تضطربُ. وقد بلغ جميعهم، على اختلاف أزمنتهم، غايةً ليس لها مثيل في تاريخ لغات البشر إلى يومنا هذا. والأصل الذي بنوا جميعًا عليه هو «الشعر». ولولاه لما استطاعوا أن يفعلوا ما فعلوا، ولما كان النحو الذي نعرفه اليوم، ولضاعت اللغة، ولذهب كل علم بلغات العرب وغريب كلامِها في أساليبها وفي تصاريف ألفاظها. وأيسرُ مراجعةٍ لكتاب سيبويه الذي عقد له الخليل بن أحمد عَقْدَهُ الذي لا يختلُ، دالةً على أنّ الشعر، كان هو مصدرَ هذا العلم كُلّه.

وإذا كان ابن سَلَّم قد احتملهُ الرِّهو بأهل البصرة ، حين نزل بغداد ، وهو يومئذ إمام البصرة ، فذكر في عبارته ما يُوهِم أنّه ذاكرٌ «نحاة » لا حملةً للشعر ، فإنّ هذا الرَّهو كُلَّه مصروفٌ إلى أنهم كانوا أوّل من أسّسَ علم العربية . أمّا الذي يريدُه ، فهو ما يَدلُّ عليه تاريخ تأسيس النحو ، وهو «الشعر » . بدأ ابن سلام بأبي الأسود الدؤلي ، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام حتى توفّي في الطاعون الجارف سنة تسع وستين ، ويقالُ إنه مات عن خمس وثمانين سنة ، فكأنه ولد قبل البعثة بثلاث سنوات ، وقبل الهجرة بستّ عشرة سنة . فلما نزل البصرة وبدأ هذا العلم ، وهو قليلٌ جدًّا كما هو معروف ، أحذه عنه يحيى ابن يعمر العدواني ، فيما يقول ابن سلام ، وأنا لا أشكُ أن هذا القليلَ لا يؤخذُ لبن يعمر العدواني ، فيما يقول ابن سلام ، وأنا لا أشكُ أن هذا القليلَ لا يؤخذ لينمي وجه واحد : أن يكون أخذ عنه «الشعر » أوَّلًا ، ثم أخذ عَنْه هذا القليلَ لينميهُ بتبتع «الشعر» والنظر فيه .

ثم أخذ ذلك عن يحيى «قتادة بن دعامة السدوسيّ» وميمون الأقرن، وعنبسة الفيل، ونصر بن عاصم الليثي، وأخذ عن هؤلاء عبد الله بن أبي إسحق الحضرميّ، المتوفى سنة ١٢٧ عن ثمان وثمانين سنة، ومعه أبو عمرو بن العلاء الذي بقى بعد ابن أبي إسحق بقاء طويلًا حتى توفى سنة ١٥٩، وقد أخذ ابن سلام نفسه عن أبي عمرو، كما أخذ عنه أيضًا عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٥٠. وأخذ عن أبي عمرو: يونس بن حبيب، المولود سنة ٩٠، والمتوفى

سنة ۱۸۲، ومعه مَسْلمة بن عبد الله بن سعد بن محارب الفهرى ، وهو مسلمة النحوى ، ومجمع عِلم هؤلاء جميعًا في صَدْر الخليل بن أحمد الفراهيدى ، فكان أمة وحدة ، حتى توفى سنة ١٧٥ عن أربع وسبعين سنة ، هكذا ساقهم ابن سلام ، فهؤلاء هم نقلة الشعر بالبصرة ، ومجمّاعة الذين تلقّوه وزاد بعضهم على بعض ، يتوارثونه خلفًا عن سلف ، قبل أن يبدأ تاريخ آخر لنقل الشعر بالبصرة ، على يد أبي مُحْرز خلف بن حيان الأحمر ، وكان في زمان الخليل ، وتوفى سنة ١٨٠، ثم الأصمعى ، المتوفى سنة ٢١٦، عن ثمان وثمانين سنة ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، المولود سنة ١١٢، والمتوفى سنة ٢١١، في حياة ابن سلام ، فهؤلاء بدأوا طريقًا آخر لجمع الشعر وتَتَبُّعِه غير طريق السابقين من علماء الشعر بالبصرة . فما هو هذا الأخذ الذي ذكره ابن سلام ؟

\* \* \*

ويحسن بنا قبل كل شيء ، أن نحاول معرفة طريق هؤلاء السابقين الأولين من علماء البصرة ، في أخذ بعضهم عن بعض وفي جمع الشعر ، على وجه الإيجاز ، ولكنْ أحسنُ الرأى عندى أن نبدأ بما كان عليه الأمر على عهد رسول الله على الكونَ الصورة أوضح ، فإنّ أصحابه كانوا جميعًا ممن شهد الجاهلية وعاش فيها دهرًا طويلًا .

۱ - روى مسلم فى صحيحه فى كتاب الشعر، والبخارى فى الأدب المفرد، عن عمرو بن الشَّريد، عن أبيه الشَّريد بن سويد الثقفى قال: «ردفتُ رسول الله ﷺ يومًا، فقال لى: هَلْ معك من شعرِ أمية بن أبى الصلت شيئًا (١)؟ قلت: نعم! قال: هيه! فأنشدته بيتًا، فقال: هيه،

<sup>(</sup>۱) هكذا أثبته شيخنا «شيئا» بالنصب، وكذلك جاء في صحيح مسلم ص ۱۷٦٧، وقال النووى في شرحه ١٧٦٥ «هكذا وقع في معظم النَّسخ «شيئًا» بالنصب، وفي بعضها «شيء» بالرفع، وعلى رواية النصب يُقدِّر فيه محذوف، أي: هل معك من شيء فتنشدني شيئا». محمود الطناحي ].

حتَّى أنشدته مئة بيت » ، هذا لفظ مسلم ، ولفظ البخارى : « حتى أنشدتُه مئة قافية » .

٧ - وأخرج البخارى فى الأدب المفرد، وابن أبي شيبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: «لم يكن أصحاب رسول الله على متحزّقين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر فى مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدّ منهم على شيء من أمر الله (أو على شيء من دينه) دارت حماليق عينيه كأنه مجنون».

٣ - وأخرج أحمد وابن أبى شيبة وابن سعد والترمذي، وصححه، من حديث جابر بن سَمُرة (كوفي) قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله ﷺ، وربحا تبسّم معهم.

٤ - ومن طريق عبد الرحمن بن أبي بكرة: «كنت أجالس أصحاب رسول الله ﷺ مع أبي في المسجد، فيتناشدون الأشعار ويذكرون حديث الجاهلية».

٥ - وأخرج ابن سعد وغيره من طريق قتادة قال: سمعت مطرّقًا بن عبد الله بن الشّخير يقول: خرجتُ مع عمران بن حصين من الكوفة إلى البصرة، فما أتى علينًا يوم إلّا ينشدنا فيه شعرًا»، هذا لفظ ابن سعد، ولفظ غيره: «فقَلَّ منزلٌ ننزلُه إلّا وهو ينشدني شعرًا».

وهذا قدرٌ كاف في الدلالة ، مغن عن ذكر أبي بكر رضي الله عنه وعلمه بأنساب العرب وأشعارها ، وعن ذكر عمر رضى الله عنه . وقل أمرٌ إلا ذكر فيه شعرا . وما كان من علم أمّ المؤمنين عائشة وكثرة ما تحفظ من أشعار العرب ، فأكثر هذا معروفٌ ممكن جمعه ، فهكذا إذن كانَ حالُ أصحاب رسول الله على حياته ، وهم يتلقّون وَحى الله ويتفقّهون في أمر دينهم ، ويغزون مع رسول الله على عادتهم التي كانوا عليها في جاهليتهم ، وعادة آبائهم من قبلهم قرونًا متطاولة . وهؤلاء الصحابة كانوا يومئذ

من جميع قبائل العرب من شمالها وجنوبها وشرقها وغربها. فلما قُبض ﷺ، وقام بالأمر أبو بكر، وتَهدُّمتْ الردّة حين هدمها أبو بكر وسائر صحابة رسول الله ﷺ، ثم قام بالأمر عمر بن الخطاب، وامتدَّت الفتوح شرقًا وغربًا، وخرج الصحابة وسائر من أسلم من العرب في فتوح الإسلام، من كُلِّ قبيلة وعشيرة وبطن، وتفرُّقُوا في الآفاقِ، وضربَ الإسلامُ بجِرانه في كُلِّ ناحية من الأرض، كان هؤلاء العربُ على عادتهم التي كانوا عليها في جاهليتهم، وعلى عهد رسول الله ﷺ في تناشد الأشعار في مجالسهم، وتذَّاكُر أمر الجاهلية. ثم بدأ عُمَر في تمصير الأمصارِ، ومُصّرت البصرة والكوفة على عهده ما بين سنة ١٧، ١٩هـ، فنزل الصحابة هذه الأمصار في الآفاق على احتلاف قبائلهم ومواطنهم، ونزل سائر العرب الفاتحين من المخضرمين الذين شهدوا الجاهلية ولم يصحبوا رسول الله ، وسكنوا الأرض واستقروا بأهليهم وولدهم ، ثم امتدَّتْ بهم أيام الاستقرار، وتكاثر الناس، فكانوا في هذه الأمصار على عَهْدهم في ذلك كُلُّه، وتوارث ذلك عنهم أبناؤهُم وأهل المدن التي هم فيها. فلمَّا كان زمانُ أبي الأسود الدؤلي ، على عهد على بن أبي طالب ، وبدأ يؤسس العربيّة ، ويفتح بابها، وينهجُ سبيلها، ويضع قياسها، كما قال ابن سلام، زادت حاجتُه وحَاجة أصحابه إلى تقصِّي الشعر المنحدِر مع حملته من الجاّهلية. فمن يومئذ افتتح ناشئة المسلمين بابًا جديدًا لحفظ شعر الجاهلية عن الصحابة وكبار التابعين، لا في البصرة وحدها، بل في الكوفة أيضًا وفي سائر الأمصار التي نزلها المسلمون من عَرَبِ الجاهلية.

كانت الكتابة قد انتشرت في جميع أمصار الإسلام، كما قلت آنفًا، فكان التابعون يكتبون لأنفسهم أكثر ما يسمعون من حديث رسول الله على، استعانة بذلك على الحفظ لا أكثر، فأصبح تقييد المشموع أمرًا منتشرًا في النّاس، لا على وجه التأليف والتصنيف، بل لمجرد التذكّر والحفظ، وكما كان الناسُ شديدي الحفاوة بحفظ مآثر جاهليتهم، وشعر شعرائهم، كان سبيلهم في ذلك سبيل ما ألفوه في تقييد الحديث، لمجرّد التذكّر والحفظ، وكلَّ امرىء يكتب لنفسه لا للناس. ويحسن هنا أن نذكر كلام ابن سلام نفسه في كتاب

الطبقات ، في الفقرة الثانية والثلاثين ، يقول :

(وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حُكْمِهم، به يأخذون، وإليه يصيرون. قال ابن سلام: قال ابن عون، عن ابن سيرين قال: قال عمر بن الخطاب: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحُ منه = قال ابن سلام: فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهَتْ عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العربُ بالأمصارِ ، راجعوا رواية الشعر، فلم يَؤُولُوا إلى ديوانِ مدوّنٍ، ولا كتاب مكتوبٍ. وألفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عليهم منه كثير».

ولا شك في صحة هذه المقالة ، إلّا أنّى لا أرى الأمر كما زعم ابن سلام : أن العرب لهت عن الشعر وروايته بتشاغلهم بالجهاد وغزو فارس والرُّوم ، فإنهم لم يلهوا عنه في أوّل الإسلام على عهد رسول الله على وهذا اللّهو عن اللهو عنه ، فأحرى أن لا يلهوا عنه في زمن الفتوح الأولى . وهذا اللّهو عن الشعر الذي زعمه ابن سلام ، إنما أراد به أن يفسّر معنى ما رواه هو بعد في الفقرة الثالثة والثلاثين في قِلَّة ما بأيدى الناس من الشعر ، وذلك فيما رواه عن يونس بن حبيب قال : «قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلّا أقله ولو جاء كم وافرًا لجاء كم علم وشعر كثيرً » والعلة الصحيحة في العرب إلّا أقله ولو جاء كم وافرًا لجاء كم علم وشعر كثيرً » والعلة الصحيحة في للحقاظ من المرضِ والضَّعف والفتور ، والحروج في الغزواتِ ، والتنقَّل في المحقاظ من المرضِ والضَّعف والفتور ، والحروج في الغزواتِ ، والتنقَّل في البلدانِ الغرية ، وقلَّة اهتمام بعض السامعين بحفظ ما سمعوا أو تقييدِه حتى البلدانِ الغرية ، وقلَّة اهتمام بعض السامعين بحفظ ما سمعوا أو تقييدِه حتى موضعه . ولكن المهمَّ في كلام ابن سلام هو قوله : «فلما كثر الإسلام ، موضعه . ولكن المهمَّ في كلام ابن سلام هو قوله : «فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، ولم يَؤُولُوا وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، ولم يَؤُولُوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب » .

فهذه العبارة صادقة كلّ الصدق في جوهرها، ولكن إذا بطل ما بُنيتْ عليه، وهو أنَّ العرب ﴿ لهت عن الشَّعِر وروايته ﴾ وتشاغلت عنه بالغزو والجهاد، بُطل منها لزامًا قوله: «رَاجعوا رواية الشَّعر»، لأنه إذا بطل أصل القضية وهو «اللهو» عن رواية الشعر، بطل الفرع، وهو مراجعة روايته بلا ريب، وإذن فهم لم ينقطعوا عن روايته في زمن الغزو والجهاد ، فلما استقروا واطمأنوا بالأمصار ، صارَ اهتمام الناس بروايته أتمَّ وأوسع. فالصواب إذن أن يحلُّ محل قولُه «وراجعوا رواية الشعر»: «اتسع الناس في رواية الشعر»، وهذا هو المطابق لطبيعة الحياة وسيرة الناس فيها، فمع تجمُّع العرب في الأمصار من مختلف القبائل، ومع الاطمئنان والاستقرار فيها، ومع تكاثر الناشئة من الأبناء الذين يطلبون العِلْم، أعنى العِلْم بأخبار آبائهم وأخبار ما كانوا عليه في الجاهلية، والعلم بشعر شعرائهم في الجاهلية ، وهو ديوانهم ومنتهى حكمتهم ، والذي قال فيه عمر رضى الله عنه: « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » ، مع هذا كُلُّه ممَّا يطابق سيرة الناس في الحياة ، كُثُّرت رواية الشعر واتسعت في هذه الأمصار الحديثة النشأة ، كالكوفة والبصرة ، وهُـمَا في دور التكوُّن والاتساع ، ولكن هذا لم يكنْ ، إلا بعد حروب الردّة التي هلك فيها من هلك من العرّب الذين كانوا في الجاهلية ، ثم بعد هلاكِ عددٍ آخر منهم على اختلاف قبائلهم في زمن الحروب بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما. فكان ذلك سببًا في ضياع كثير من شعر الجاهلية وسقوطه عنا ، ولذلك قال أبو عمرو بن العلاء: « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلَّا أقلُّه ، ولو جاءكُمْ وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير » . وهي أيضًا مقالة صادقة كلُّ الصدق، يدلُّ على صدقها ما نجده اليوم بين أيدينا .

ومع أن هذا هو المطابق لطبيعة الحياة وسيرة الناس فيها، ومع أن تطلّب الأبناء أخبار الآباء وأشعارهم في جاهليتهم مطلبٌ صحيح قائم في النفوس، وفي نفوس العرب خاصةً، فإن الأمر كان أجلّ من ذلك، ولكننا نغفلُ عنه، ولا يُدْخِلُه أحد من المحدّثين في البحث عن أمر الشعر الجاهلي إلّا رَمزًا، وسبب هذا الإغفال، فيما أرجّح، أمران: أولهما: اتباع مناهج سقيمة سيئة مُجتلبة،

مبنيَّة على التقليد، وهى فى ذاتها لا تصلح للدراسة الأدبية فى هذه اللغة وفى تاريخ أصحابها، مع ما فى التقليد من الضعف والتهافت عن أسلوب الباحثين الذين يقلدونهم. وثانيهما: أن الأمر غامضٌ بعض الغموض، لأنه يتعلَّق بدخيلة نفوس ذهبتُ منذ قرون، لم يشهدها منا أحدَّ فَيَتْتَبِهَ إلى توسَّم معالمها وخوافيها، ولأن أصحاب هذه النفوس، لم يتحرَّوا أن يبينوا عن مكنونِ أنفُسهم فيما وصل إلينا من مأثور أقوالهم، إلّا لمحاً خفيًا فى قليلٍ من الأحيانِ، فهو حَرَى أن يتجاوزه النظر، دون أن يشعر بخطره أو فائدته فى الدراسة.

وبيانُ ذلك أن الله سبحانه حين اصطفى من البشر محمدًا على ، وابتعثه من العرب رسولًا نبيًا ، لم يجعل له سبحانه آيةً على نبوته كآيات الأنبياء من قبله ، بل آتاهُ آيةً واحدةً ، كتابًا عربيًا منجَّمَ التنزيل على مدِّ ثلاث وعشرين سنة ، يقرأُه على الناس على مُكْثِ ، وطالب السامعيه أن يُقرُّوا أنّ هذا الكلام العربيّ المنزل ، هو كلامُ الله سبحانه ، وأنه وإن كان جاريًا على أساليب لُغتهم ، فإنه مفارق لكلام البشر ، بدليل ظاهر قاهر هم قادرون على تبيّنه واستظهاره . فإذا تبينوا ذلك ، فالتَّالِيةِ عليهم ، وهو رجُل من أنفُسهم ، نبيّ مرسل مبلّغ عن ربّه كلام ربّ العالمين . وبيّن أنّه لم يطالبهم بذلك التمييز بين نظمه وبيانه ، ونظم كلام البشر وبيانه ، إلا وهم قادرون على ذلك التمييز .

هذه واحدة. فلما كابر المشركون وكذّبوه عنادًا، تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات [هود: ١٣]، ثم بسورة مثله [يونس: ١٠]، ثم قضى غاية التحدّى فقال لهم: ﴿ قُل لَيْنِ اَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا التحدّى فقال لهم: ﴿ قُل لَيْنِ اَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقَرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَان بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم لم القرّه لا يَأْتُون بِمِثْلِهِ عَلَى الموازنة بين كلامه سبحانه، والكلام الذي يأتون به استجابة لهذا التحدى = سوى أنفُسِهم، فالأمرُ كُله مفوض اللهم. وذلك أيضًا دليلٌ على أنَّهم كانوا قادرين على هذا التمييز، وأنهم مؤمّنون على هذا التمييز، وأنهم مؤمّنون على هذا الحكم. وإذن، فالأمر في الحالين: في طلب إقرارهم بأن هذا القرآن المنزّل مباينٌ بنظمه وبيانه لكلام البشر = وفي الحكم المفوّض إليهم في

التمييز بين القرآن ، وبين ما عسى أن يعارض به المعارضون استجابةً للتحدّى = كلاهما دالٌ على أن المخاطبين بالقرآن ، كانوا يملكون قدرًا لا يمكن تحديدُه من القدرة على تذوّق البيان والنظم ، تُتيح لهم الفصل الواضح بين الذي هو كلامُ البشر ، والذي هو مباينٌ لكلام البشر ، وتمنحهم اليقين القاطع بأن هذا القرآن العربيّ المنزّل بلسانهم ، هو كلام ربّ العالمين . وهو دالٌ أيضًا على أن هذا القدر من التذوّق كان عامًا فيهم ، يستغرقُ جميع المخاطبين بهذا القرآن ، وأنّه كان كائنًا فيهم من قبل أن ينزّل القرآن .

وهذا التذوّق العام الذى كان فيهم حين نُزّل القرآن، يهدينا كونه إلى أصلين عظيمين لا انفكاك له منهما. أوّلهما: أنه غير ممكن أن يكون نشأ فيهم ابتداءً عند تنزيل القرآنِ، بل هو نتيجة دهور متطاولةٍ من تذوّق البيانِ في أوسع نطاقٍ من التنوّع وأشمله، وعلى أعلى درجةٍ من دقة الإحساس بالأبنية اللغوية المختلفة التي أتيحت للبيان الصادر عن الإنسان في جميع لغات البشر. وثانيهما: أنه لا يمكن أن يكون كانَ الأمر على هذا الوجه عند تنزيل القرآن، إلّا وفي أيدى الناسِ وفي نفوسهم أمثلة حيّة كثيرة متنوعة عتيقة جدًّا متداولة بين لهنه ، وأمثلة أخرى محدثة عتيدة ذائعة بين الناس، على اختلاف درجاتهم، لا يكفّون عن تتبعها وتذوّقها، وعن المقارنة بين قديمها ومُحدَثها، باهتمام وحرص وشغفي غالب، يَصْقلُ التذوّق صَقْلًا حتى تبلُغَ هذه الغاية.

وإذا كان الأمرُ كذلك، وكانَ مقطوعًا به أنّ أهل الجاهلية كانُوا أمةً أميّة لم تعتمد حياتُها الأدبية، كما نقول اليوم على كتابة الكتب وعلى التصنيف والتأليف، بل كان كُلُّ علمهم، كما قال عمر رضى الله عنه، في الشعر كان مقطوعًا به أيضًا أن الشعر عندهم كان هو أرفعَ الأمثلة الحيّة، للبيان الذي يتذوّقونه بحرص وشغف، حتى بلغوا هذا المبلغ الذي دلتنا عليه آية النبوّة، وهي القرآن العظيم، إذ تقاضاهم ربُّ العالمين أن يميّزوا بهذا التذوّق المذهل الذي كان فيهم، بين كلام البشر كُلِّهم، وبين الكلام المنزّل على نبيّهم، فيحكموا بهذا التذوّق وحده بأنه كلامٌ مباين لكلام البشر، وأنه كلام رب العالمين سبحانه = ثم التذوّق وحده بأنه كلامٌ مباين لكلام البشر، وأنه كلام رب العالمين سبحانه = ثم

جعلهم أيضًا محكّمين في الفصل بين هذا القرآن المنزّل، وما عسى أن يأتي به من يستجيب للتحدّي محاولًا أن يأتي بمثل هذا القرآن.

ونحنُ لا نستطيعُ، بل لا يجوزُ لأحدِ عاقل، أن يُشقِط هذه الحقيقةَ من الدراسة الأدبية ، لأن معنى إسقاطها من الدراسة هو عزْلُ حقيقة في عصر بعينه عن عصرها وعن أصحابها ، ثُم دراسة هذا العصر مجرَّدًا من الناس الذين كانوا فيه ، والذين كانت هذه الحقيقة قائمةً فيه بِهم وفيهم. ولو فعلنا ، لكان معنى ذلك أنَّنا ندرسُ عصرًا فارغًا من أهله من البشر، وهذا عبثٌ فارغٌ، بل جهلٌ، بل هو جنونٌ مطبقٌ على الأصحّ. وإذا كانَ غير العرب معذورين في عزل هذه الحقيقة وأشباهها عند دراستهم للشعر العربيّ والتاريخ العربيّ، لأنَّ هذه حالة فريدة وحيدة لا شبيه لها في تاريخ الجنس البشريّ كُلِّه، وليس في إمكانهم تصورُها إلّا بمفارقة عقائدهم التي أُشربوها منذ الميلاد = فإن المرء العربيّ ، أو المرءَ المسلم، لا يُعْذَر في عزلها، لأنها جزَّة لا يتجزَّأ من عقيدته، وأيضًا لأنها جزةً لا يتجزُّأ من ميراث تاريخه ولغته ، ولأنه لو فَعل ، لما بقى في يديه شيءٌ يدرسُه بعد إسقاط البشر الذين كانت تقومُ بهم حقيقة الأدب وحقيقة التاريخ. وكُلُّ من أسقط هذه الحقيقة من المحدّثين في زماننا، فإنّما أسقطها عن طريق تقليد الدارسِين من غير العرب، في زمان صار لغير العرب فيه الظُّهورُ والغلبة والسيطرةُ على الحضارة ،والتفوق في الفكر والعلم ، بلْ آلت إليهم السيطرةُ على الحياةِ كُلُّها. فمن هذا وحده سقطوا في التقليد، والتقليد عجزٌ وفسادٌ، ولا يكون التقليد عذرًا لأحد يعقل! ومعذرة لهذا الاستطراد.

ولا ينبغى أن نترُكَ الأمر عُفلًا، فإن هذا التذوَّق الفاخِر الذى كان عامًّا فى العرب المخاطبين بالقرآن، كان أيضًا شاملًا لمن عاشرهُم من طوائف البشر، من مواليهم من غير العرب، ومن غير مواليهم، حتى ظهر من الشودان وغيرهم شعراء مُحكِمون مجيدون، مثل شحيم عبد بنى الحسحاس، وكان حبشيًا مُغلَّظًا قبيحًا، وكان أعجميًّا ألكن، يقلب الشين سينًا (ما سَعَرُن) والتاء كافًا (أحسنكُ والله)، ومع ذلك كان شاعرًا محسنًا، يقول فيه ابن سلام: «هو

حُلْوُ الشعر، رقيقُ حواشي الكلام»، و«أنه عبدٌ من عبيد العرب (١)، نافذ». بل زاد الأمرُ على ذلك ، فنحن نعلم أنَّ الفرس الذين جاءوا إلى اليمن وحكموه دهرًا، اكتسبوا قدرًا وافرًا من هذا التذوُّق، وهم المعروفون بالأبناءِ، وقد روى الطبرى حديثًا طريفًا عن أحدِ من حكم اليمن منهم، (٢: ١٥٧)، وذلك أن كسرى هُرْمز ، عزل أحدَ ولاة اليمن واستعمل مكانه «المروزان» ، فأقام باليمن زمانًا حتى وُلدَ له بها وبلغَ ولده ، وكان للمروزان ابنان ، أحدهما تعجبُه العربيّة ويَرْوى الشعر، يقالُ له: «خُرِّحُسْرةَ» والآخر أسوارٌ يتكِّلم بالفارسية ويتدهْقَن. فاستخلف « المروزان » ابنه « خُرَّ خُـسْرة » ، وكان أحبُّ ولديه إليه . فلما ولى كسرى أبرويز بن هرمز، بلغه تعرُّب «خُرَّ حسرة»، وروايته للشعر، وتأدُّبه بأدب العرب، عزله وولَّى مكانه «باذان»، وهو الذي جاء الإسلام عليه، وبعث بإسلامه إلى رسول الله عِيْدٍ. ومعنى هذا: أن هذا التذوُّق كان من العُمْق، ومن القوة والظهور في الناس، ومن الذيوع بين عامتهم وحاصتهم، بمنزلة فريدة غريبة لا نكادُ اليومَ نبلغُ صفتها، لأنَّا لم نشهدها، وإن كانت شهادةُ النظر، ثم شهادة التاريخ بعد الإسلام، دالَّة أوضح الدلالة على هذا العمق النافذ، إذ حمل الموالي في الإسلام قشطًا وافرًا من علم العربية، ومن علم الشُّعر، ومن الجهبذة فيه، وبلغوا في ذلك مبلغًا لم يكن له مثالٌ في التاريخ من قبل ذلك ولا من بعده ، في أمة من الأمم سوى العرب ، ولا في لغةٍ من اللغات سوى ـ العربية ، إلى يومنا هذا . ونحن نعلم ما يقول أصحاب المناهج الساقطة في هذه الغريبة الفريدة ، ولكن ليس هذا موضعَ بيانه وتفصيله .

فإذا كان هذا التذوّق المصقولُ المُرْهف البالغ أقصى غاية الدقّة والنفاذ فى الإحساسِ بروعة البيان الإنسانيّ، لا يمكن أن يكون قد نشأ ابتداءً حين نُزّل القرآن = وكان غير ممكن أيضًا أن يبلغ هذا المبلغ إلّا بعد دهورٍ متطاولةٍ من

<sup>(</sup>١) بخط شيخنا «من عبيد الشعر» وأثبتُه كما جاء في طبقات فحول الشعراء ص١٨٧ [محمود الطناحي].

التذوّق النبيل الحُرِّ = وكان غير ممكن أيضًا أن ينفُذَ هذا النفاذَ إلّا وفي أيدى الناس وفي نفوسهم وعلى ألسنتهم ، أمثلة وافرة بالغة الوفرة ، متنوِّعة كلّ التنوُّع ، عارسون عليها تذوّقهم ممارسة متأنِّية متطاولة ، حتى يصقل هذا الصقل ، وحتى ينتهى إلى أقصى حدٍّ من الرَّهَف واللَّطف ، وهذه الأمثلة الحية الوافرة المتنوعة ، لم تكن إلا من الشعر وحده .

ومعنى هذا أنّ العربَ في العصر الذي نُزّل فيه القرآنُ العظيم ، كان عندهم من الشعر القديم المُعْرِق ، ومن الشعر المحدّث في زمانهم وقُبيل زمانهم بقليل ، قدرٌ لا يمكنُ تحديده أو حصره من هذا الشعر . وكانَ هذا القدر الوافر البليغ الوفرة ، ذائعًا على الألسنة في هذه الجزيرة العربية ، من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ، ومن أبعد شرقها إلى أبعد غربها = وأن هذا الشعرَ كانَ مل اليامهم ولياليهم وساعاتهم ، يتناشدُونه في كُلِّ منزلِ ، ويَتَمثَّلُونه عند كُلِّ موقف ومَسِير ، ويتذوّقُونَهُ تَذوّقًا بَصِيرًا مُرْهفًا ، ويفضِّلون بعضَه على بعض ، بما اكتسبوا من القدرة على هذا التذوّق الفاصِل بين أَدَقٌ درجات البيان على اختلافها وتنوُّعها .

وأظن أنى فى غِنىً عن ذكر مواسم العرب المشهورة، حيث يتجمع الناس من كُلِّ بطن وقبيلة، ويتناشدون هذا الشعر، فضَّلًا عن تجمّع قبائلهم وبُطُونهم المختلفة عند النجعة فى مساقط الغيث فى قلب الجزيرة وأطرافها، فى كل مصيفٍ ومربع. أما الذى هو أجود، فهو أن ننظر قليلًا، كيف عبَّر الشعر الجاهليّ الذى شارف ظهور الإسلام، عن سيرورة الشعر فى الناس جميعًا على اختلاف منازلهم وطبقاتهم. يقول المسيب بن عَلَس، وهو جاهليّ، وهو خال الأعشى، يثنى على رجُل أدركه الإسلام بعد ذلك فأسلم، وهو الجواد المعروف «بتيّار الفرات»، القعقاع بن معبد بن زُرارة بن عُدُس الدَّارميّ، فأهدى المسيّب إليه ثناءه وهو مقيم بديار قومه بنى ضُبيعة، والقعقاع مقيمٌ بأرض بعيدة فى ديار قومه بنى قال له:

فلأُهْدِيَنَّ مع الرِّياحِ قصيدةً منّى مُمَّنَّفَنَةً إلى المعقاع

تَرِدُ المناهِلَ، لا تَزَال غريبةً في القوم، بين تمثُّل وسَمَاغ

«فلأهدين مع الرياح»، كلمة بارعة، قصيدة تحملها الرياح مُسْرعة مُنتشرة لا يحتمِي منها أحد، «مُغلْغلَة»، حثيثة الانتقال من بلد إلى بلد، «ترد المناهل»، مناهل الماء، حيث ينزل المسافرون في البوادي والقفار، بعد أن قلَّ ماؤهم وبلغَ منهم الجَهْدُ، فتأتيهم هذه القصيدة، فتشفى هي أيضًا ظمأهم، فهي بينهم، «لا تزالُ غريبةً في القوم، بين تمثّل وسماع»، غريبة لا تستقرُ عند راويها. بل يرويها هذا عن هذا، فهم يتناقلونها، كما تتناقل «الغريبة» وهي الرّحى، رحى اليد، فإنها لا تستقرُ عند أربابها، بل يتعاورونها بينهم مشيئه وقلبه يتداولونها، فهم بين منشد، وهو «المتمثل» وبين سامع قد منحها أذنك وقلبه مصغيًا ليقيدها ويحفظها، ويتكفّل بإنشادها حيث كانَ. فهذه صفة سيرورة الشعر، كما قال المسيّب للقعقاع، والمسيّب يقول أيضًا لجيفَر بن الجلندي الأزدى ملك عمان، وقد أدركه الإسلام أيضًا فأسلم، أهدى إليه تحيته على البعد، ولم يرحل إليه ولم ينشده إيّاها:

وإنّى امرؤ مُهْدِ بغَيْبِ تحيَّة إلى ابن الجُلَنْدُى فارسِ الخيل جَيْفَرِ بها تُنْفَضُ الأحلاسُ، والديكُ نائمٌ إلى مُسْنَفَاتٍ آخِرَ الليل ضُمَّرِ

فهؤلاء سَفْرٌ آخرونَ ، بَعُدت عليهم الشَّقَة ، حتَّى كلَّت ركائبهُم ، وبلغ منها الضمور وخمصت بطوئها ، واضطربت حبال رحالها التى تشدُّ عليها ، فوقعوا وقْعة يسيرة ليستريحوا ، ثم قاموا من آخر الليل والديكُ نائم لم يؤذن بعدُ ، وفي أعينهم النوم ، وفي أبدانهم فُتُور الجهد ، فقاموا ينفضُون الأحلاس وهم يتناشدون هذه القصيدة ، لتنفى عنهم السِّنة ، وتبعث فيهم النشاط والحركة ، تهيجهم على تدبير أمر رحلتهم على هذه النياق الضمَّر التي اضطربت رحالها ، ليَشدُّوا عليها «السناف» ، وهو حبلٌ يشدُّ من حقب الناقة إلى تصديرها ثم يشدُّ في العنق ، لتبت الرحال على هذه النياق الضُمَّر . والتصيدة هي دواءُ الكلال وحافز العمل ، وقد تابع الأعشى خاله ، وزاد على هذه النياق على هذه النياق الضُمَّر .

## هذه الصفة وفصَّلها تفصيلًا حيث قال:

وإنّ عتاقَ العيسِ سوفَ يزورُكُمْ ثناةً على أعجازهِنّ مُعَلَّقُ بهِ تُنفَضُ الأحلاس في كُلِّ منزلِ وتُعْقَد أطرافُ الحِبَالِ وتُطْلَقُ

فأمًّا زهير بن أبي سلمي، فهو يجعل الشعر بضاعةً حاضرةً مع التجار، تجار الخمر، يفضُّونها في الناس عند كل منزل حيث يقول:

فأبلغ إن عَرَضْتَ بِه رسُولًا بنى الصَّيداءِ، إن نَفَعَ الجَوَارُ فإن الشّعر ليس له مَرَدُّ إذا وردَ المياهَ بِه التِّجارُ

يقول: إذا نزل التجارُ منهلًا وحطُّوا عن رواحلهم، ونصبوا غاياتهم ورفعوها، ليعلم الناسُ أنَّ الخمر حاضرةٌ وافاهُم المشترونَ الراغبونَ من كُلِّ أخياف الناس، لينالوا نصيبهم من الشراب والمنادمة، فينشدونهم هذا الشعر، فتصغى له أسماعهم، ويومئذ لا مردَّ لهذا الشعر، فإنه سوف يذهبُ مع هؤلاء الأخياف كلَّ مذهب، ويتناقله كُلُّ لسانِ.

وأما حميد بن ثور الهلاليّ ، وهو جاهليّ أظلَّه الإِسلام فأسلم وصحبَ ، فهو يقولُ متهدِّدًا:

أتانِى عن كَعْبِ مقالٌ ، ولم يزلُ لأعترضَنْ بالسَّهْلِ ، ثم لأَحْدُونْ قصائدَ تَسْتَحِلى الرُّواةُ نَشيدَها يعَضُ عليها الشيخُ إبهامَ كفِّهِ

لكعب يمين من يدى وناصِرُ قَصَائد فيها للمعاذير زاجرُ ويَلْهُو بها من لاعب الحيّ سامِرُ وتخزى بها أحياؤكم والمقابِرُ

فهو يذكرُ كيف يتذوّقُها الرواة تلذَّذًا وهم ينشدونها في الحيّ، فيتلقفها اللاعبُ اللاهي، ويعيد إنشادها في السامر من تحت الليلِ، وكيف يكونُ موقعها عند الشيخ الكبير الذي لا يملك لها دفعًا إلا عضَّ إبهامه ندمًا على ما كان من غواةٍ قومه وصغارهم.

وأما مزرّد أخو الشماخ بن ضرار الغطفانيّ ، وهو جاهليّ أسلمَ ، فهو يزيدُ على هؤلاء جميعًا في صفة سيرورة الشعر يومئذٍ ، وكثرة رواته ومنشديه ، وأنَّه إذا نزلَ بأرض كثُر منشدُوه حتَّى تختلط أصوات المتمثلين. وترنُّ أصداؤهُ في كلِّ مجلسِ وفي كل سمع، ثم يعادُ مرّةً بعد مرةٍ ، فلا يزدادُ إلا وضوحًا وصقلًا واستنارة، وأنّ الناس يروزونه بأفواههم يتذوّقونه، حتى تُرَى الشفاه «عوامل» كثيرة الحركة من كثرة الترداد، يقول:

> فقد علموا في سالفٍ الدهر أننّي مذكرةٍ، تُلقَى كثيرًا رواتُها تُكُوُّ، فلا تزدادُ إلا استنارةً فمن أرْمِهِ منها ببيْتٍ يَلُحْ به

مِعَنَّ إِذَا جَدَّ الجِرَاءُ وَنَايِلُ زعيم لمن قاذفتُ بأوابد يُعَنِّي بهاالسَّاري، وتُحدَّى الرواحل ضواح لها في كُلِّ أَرْضِ أَرَامِلُ إذا رأزت الشعرَ الشفاهُ العوامل كشامة وَجْه ليس للشَّام غاسِلُ

فالشعر هو سلوة السارين ليلًا، وبه يحثُّون رواحلهم كأنها تستمع أيضًا وتتذوّق وتنشط بما تسمع، وهو ملء كل مكان.

ولا أذكر ما قيل في تناشد الإماء العبيد والولائد والعاملين في كُلِّ عمل عند الاستقاءِ من الآبار، وعند معالجة الشؤون الأخرى كُلُّها في الحياة العربية، وأختم هذا، بما حدثنا به تميم بن أُبَيِّ بن مقبل، عن الشعر كيف يستقبله الناسُ إذا سَمِعوا بيتًا ماردًا بارعًا، فكأنه جوادٌ سابقٌ بلغ الغاية، فتمتدُّ إليه الأيدى تمسَحُ وَجْهه إعزازًا له وتكرِمةً ومحبَّة وفَرحًا به، يقول لامرأته:

إذامِتُ عن ذكر القوافي، فلنْ ترى لها تاليًا مِثْلِي أَطَبُّ وأَشْعِرًا . وأكثرَ بيتًا ماردًا، ضُربتْ له خُزُون جبالِ الشِّعر حتى تيسَّرا أغرَّ غريبًا ، يمْسَحُ الناسُ وَجْهَهُ ،

كما تمْسَح الأيدِي الأغرَّ المُشَهَّرَا

أما الجاهلي الذي فاقَ هؤلاء، وأوجز كُلُّ هذا وزاد عليه، فإنه يقولُ: فإنْ أَهْلِك، فقد أبقيتُ بَعْدِى فَوافِيَ تُعْجِبِ الْمُتَمثِّلينَا

## لذيذاتِ المقاطِع، مُحْكَمَاتٍ لَو ٱنَّ الشِّعْرِ يُلْبَسُ لأرتُدينا

ما أروعه!! وهذه الأبيات القلائل ترفّعُ لأعيننا صورةً حية للشعر في الجاهلية، كان الشعر زادَ كُلِّ ركبٍ يقطع البيد من منزلٍ إلى منزل، يتناشدونه تحت رهبة الليلِ المتمادى عن أيمانهم وعن شمائلهم، ينقلونه معهم من منهلٍ إلى منهل، أَوْ يردُون به على كُلِّ حَيِّ حِلالٍ. كان الشعر يومئذ سمرَ السامرين واللاهين تحت أشلاء الليل، يتمثلونه في أنديتهم مع الفراغ المتطاول في أيامهم ولياليهم، يتأمّلُه المقيم والسارى ويستعيده ويكرّره، حتى يزداد استنارةً ولألاءً. كان مع كُلِّ قلب وعلى كُلِّ لسان، على اختلاف طبقات الناس من ساداتهم وأشرافهم، وصغارهم وكبارهم، وإمائهم وعبيدهم. كانوا يستقبلونه استقبال الحفاوة والشغف واللذة والبهاء والخيلاء. لا يزالون يتذوّقونه تذوّقًا مستمرًا بشفاه عوامِل في المحافظ الجامعة، وفي الوَحْدة المتمطّية بهم مع آناء الليل وأطراف النهار كان تذوّق الشعر هو عمل النفس العربية الجاهلية، لا تأخذها عنه فترةٌ ولا ملل، بل تهتز وتنشط وتبتهج، وتجدُّ وتهزلُ، وتنبسطُ وتنقبض، وتجد فيه لذّة الخياةِ التي تخالط الأحياء بالليل والنهار، فهي عليه، وعلى ما تجدُ لَهُ من الأريحيَّة، أشدُّ حرصًا من حرصها على كل نفيس وغالٍ. هكذا كانوا، حتى الأريحيَّة، أشدُّ حرصًا من حرصها على كل نفيس وغالٍ. هكذا كانوا، حتى جاء الإسلام، ونَزَل القرآن.

\* \* \*

كان نزول القرآن العظيم حادثة فريدة في تاريخ البشر ، لم يكن لها شبية في تاريخ الأمم ، ولا في تاريخ الأنبياء صلوات الله عليهم ، ولن يكون لها شبية . وهي حادثة باقية على الدهر ببقاء القرآن متلوًّا بين الناس ، ولذلك فترك النظر في شأنها وفي النتائج المترتبة عليها ، وعَرْلُها عن الدراسة الأدبية والتاريخية عزلًا تامًّا ، كما هو واقع بيننا اليوم في دراسة الأدب والتاريخ = لا يتأتَّى أن يكون مفهومًا إلا في حالتين : فإمّا أن تكون حقيقة رأينا أن ننكر إنكارًا صريحًا قاطعًا أن هذه الحادثة الفريدة ، قد وقعت على هذا الوجه الذي نعرفُه ، وأنْ يكون اعتقادُنا الخفيّ هو أنّ

كلَّ ما يقالُ عنها باطلٌ لا أصل لَهُ. وإن كان أصحاب الديانة إنّما يذكرونه لتثبيت العقيدة في القلوب لا غير، وإذ لم يكنْ لرسول الله على معجزة أخرى كمعجزات سائر الأنبياء طُولب العرب بالإيمان بنبُوَّته عن حدوثها على يديه، فمآلُ الأمر في هذه الحالة هو: أن هذا الكتاب ليس كلام الله سبحانه، بل هو كلامُ مصلح عبقري عظيم كسائر المصلحين، وإن فاقهم جميعًا = وأن العرب لم يؤمنوا بأنّه نبيّ رسولٌ إلا على هذا المعنى وحده. وإذنْ فكل ما يقالُ عن إعجاز هذا الكتاب وتحدّيه للعرب وغير العرب ليس صحيحًا = وأنهم لم يكونوا عاجزين عن الإتيان بمثل نظمه وبيانه في لسانهم، بل كانوا قادرين على ذلك، ولكنهم أعرضوا عن معارضته، لأنّهم سلّمُوا تسليمًا ما أنّ اتباعَ هذا المصلح العبقريّ العظيم هو أوفق لهم وأنفع، فرأوا الخير كُلّه في اتباعه، فأعرضوا عن الاستجابة لتحدّيه طمعًا في مجد أمّلُوه، وذكر باق عند الناس توقّعوه، ورجاءَ أن تكون لهم على أهل الأرض الغلبة بسلطان هذا الكلام الذي جاءهم به.

هذه هي الحالة الأولى = وإمّا أن تكون حقيقة أمرنا اليوم أننا في حالة مستعصية من العجنز عن فهم التاريخ ، مع إيماننا بأن هذا كلام الله سبحانه ، وفي جهل فاضح يمتنع معه أن نكون قادرين على تحليل الوثائق التي هي تحت أيدينا تحليلًا بصيرًا ذكيًا مقنعًا ، يعين على وضوح التفاصيل وربط بعضها ببعض ، ويتيح لنا رسم صورة صحيحة للقوم الذين نُزِّلَ عليهم . وآمنوا بأنّ هذا القرآن كلام الله المباينُ لكلام البشر ، ثم ما يتبع ذلك من رسم صورة صحيحة للعصور التي تلى هذا العصر ، عصر التابعين وعصر تابعي التابعين ، وهكذا إلى يوم الناس هذا .

وهذه هي الحالة الثانية وكلتا الحالتين أخبثُ من أختها وأخزَى. وأنا أحمد الله الذي أخرجني من محنة «الشعر الجاهلي»، منذ أكثر من خمسين سنة، رافضًا لهاتين الحالتين جميعًا: حالة الكُفْر بأن هذا كلام الله المباين لكلام البشر، وحالة العجز والجهل والخزى والمهانة. وما دمتُ مقرًّا بأن نزولَ القرآن،

على الوجه الذي نعلمه ، حادثةً فريدة في تاريخ البشر ، فإن هذا الإقرار يقتضيني أن أجعلها أصل الأصول كُلِّها في دراسة الأدب وفي دراسة التاريخ ، وإلّا أصبح الأدب العربيّ والتاريخ العربيّ معًا ، خليطًا من المتناقضات لا يمكن فهمه أو دراسته إلا على وجه المكابرة والادعاء لا غير .

وإذْ كان الذين آمنوا بهذا الكتاب، كتاب الله، هم العربُ الجاهليين أصحابَ «الشعر الجاهلي»، فصورة هذا العصر وصور رجالِه، أساسٌ لا غنئى عنه في قضية صحة الشعر الجاهلي، وفي قضية صحة روايته. وإذن، فينبغى أن نضع القضية كُلَّها وضعًا صحيحًا، مطابقًا لطبيعة حياة البشر، بلا انفصال ولا تفكك، وقد بينتُ آنفا بعض البيان: أن مطالبة أهل الجاهلية بالإيمان بمحمد وقد بينتُ مُرْسلٌ مبلِّغٌ عن ربّه، تعتمد على أصل واحد لا غير: هو أن يستمعوا إلى هذا القرآن ويستمعوا إلى رسول الله عليه وهو يشلُو عليهم ما يُنزَّلُ عليه اليه منه. وهذا القرآن في نأناة الإسلام كان قليلًا جدًّا، لأنه كان ينزَّلُ عليه منه من من الله على أبلى أن لحق بالرفيق الأعلى، بأبي هو وأمِّي، بعد ثلاثٍ وعشرين سنة من يوم بعثته. وإذنْ فهذه المطالبة تقع على قليل القرآن وكثيره وقوعًا واحدًا، منذ أوّل يوم نُزِّل فيه القرآن.

وسبيلُ هذه المطالبة ، هو أنهم إذا أحسنوا الاستماع إلى ما يتلى عليهم منه ، كانوا قادرين على أن يعلموا علمًا يقينًا أنّ هذا الكلام مباينٌ لكلام البشر جميعًا ، وهذه المباينة دالةٌ على أنه كلامُ رب العالمين منزَّلًا على تاليه عليهم بلسان عربي مبين ، فمبلِّغه عن ربّه نبيّ ورسول أرسله إليهم ليتبعوه . ولولا هذا لم يكن لهذه المطالبة معنًى يُعْقَل . هذه واحدة .

والثانية: أنهم لا يكونون قادرين على هذا التمييز الفاصِل العجيب الذى لم يُمْتَحن البشر بمثله من قبل، إلا وقد أوتوا قدرًا يفوقُ كل تصوَّر، من القدرة على تذوُّق أبنية الكلامِ تذوُّقًا نافذًا إلى أعمق أعماق البيان الإنساني، ولولا هذا لم يكن لهذه المطالبة الغريبة أيضًا معنى يُعْقَل.

والثالثة: أن هذا القدرَ من التذوَّق ، غير ممكن أن ينالَهُ أحدٌ إلا بعدَ قرونِ متطاولةٍ مُوغِلة في القدمِ ، كان التذوُّق فيها عملًا دائبًا لجمهور العرب الذين نُزِّل هذا القرآن بلسانهم ، ولولا هذا لم يكن لهذه المطالبة أيضًا معنى يُعْقل .

والرابعة: أنّ هذا غيرُ ممكن أنْ يكون، إلا وعند المطالبين بهذا الفَصْل الخارقِ، قَدْرٌ هائل من الكلام الشريف النبيل الجامع لأساليب البيان الإنساني، يكون متداولًا بينهم، يمارسُ عليه جمهور الناس هذا التذوّق، ولولا هذا لم يكن أيضًا لهذه المطالبة معنى يُعقل.

والخامسة: أن هذا الكلام الشريف النبيل كان أكثره شعرًا عربيًّا جاهليًّا، متنوِّع المعانى، متعدّد الأغراض، يتناول ببيانه كُلَّ ما تحتاج نفوس البشر إلى الإبانة عَنْه، على تعدّد هذه الحاجات.

والسادسة: أن تذوّق ما كانَ في صدُورهم من الشعر وغير الشعر، كانَ عمل كبيرهم وصغيرهم ورجالهم ونسائهم، وأشرافهم وعامتهم، وأحرارهم ومواليهم، وأنّ هذا التذوّق كانَ لَهُ القسط الأوفر في حياتهم، في باديتهم وحاضرتهم، وفي جِدّهم ولهوهم، وأنهم كانوا على مثل تضرّم النار من الشغف به والإلحاح عليه، حتى صُقِلت ذاكرتهم فوَعَتْه، وأرهِف به إحساسهم فميّز بعضه من بعض، بلا حاجَة إلى علم أو علوم أخرى تعينهم على تعلّم هذا التذوّق، وحتّى صار هذا التذوّق العام كأنّه سَجيّةٌ فُطِروا عليها ابتداءً بلا تثقيفٍ مؤسّس على الدراسة والتعليم. ولولا هذا لم يكنْ لهذه المطالبة العامّة أيضًا معنى يُعْقَل البتة.

هذه ستُّ باباتِ تُوجبها المطالبة ، ينبغى لكُلِّ دارس من أديب ومؤرخٍ أن يقف عندها طويلًا ، قبل أن يتكلَّم في شأن «شعر الجاهلية» ، وأن يقدّر خطرها تقديرًا صحيحًا ، حتى لا يجور به الطريق ، وحتى لا يبتذلَ ألفاظ اللغة التي يعبِّر بها عمّا في نفسِه ابتذالًا يجلبُ معه من الأوْهام الفاسدة ، أكثرَ مما يجلبُ من الحقائق الأدبية أو التاريخية .

ينعم، فإنّ مطالبةَ عرب الجاهلية، منذ أوّل يوم في البعثة، بأن يُؤْمنوا بأن هذا الرجل على ، رسولٌ من الله أرسله إليهم ، يبلِّغهم عن ربِّهم ما شاء الله أن يلُّغه، حقيقة تاريخية واقعةٌ لم يشك فيها قبل اليوم، ولا يشُكُّ فيها اليوم، إنسانٌ يعقل من ورثة هذه اللغة وهذا الدين ، حتى منْ ضَلَّ وكابر . وكان ينبغي أن لا يخالفهم فيها إنسانٌ يعقلُ ، ممن يخالفهم في أصل العقيدة وفي اللسان ، لأنّ حقائق التاريخ المتظاهرة من كُلِّ وجه، لا تدع لهذا الشكّ مجالًا في النفوس يتحرَّك فيه أو يتدسَّس. بيد أنَّ أكثرهم يعلم ذلك علمَ يقين في دخيلة نفسه، ولكنه يتغاضى عنه ويكتمه، بسبب العقيدة التي ينتمي إليها، وهي بطبيعتها مبنية أصلًا على العصبية ، لا الإنصاف ، ولذلك فهو يجعل منهجَ دراسته الأدبية والتاريخية في شأن العرب والمسلمين، قائمًا أبدًا على إغفال هذه الحقيقة الواقعة وعزلها عن دراسته ، فإن اسْتَحْيَى أحدهُم ، أو حاوَل أن يُظهر الحياءَ، وخادع بإظهار الحرص على النَّصَفة والجدُّ في الدراسة ، فإنَّه يبدأ مشيرًا إليها عَرَضًا، إبراءً للذمة ثم يُغْفِلها بعد ذلك، ويُغْفِل أيضًا كُلَّ ما يتطلُّبه حدوثها من النتائج المترتبة عليها، وهؤلاء هم المستشرقون من أهل الكتابين ... ولكن ما أشبه الليلة بالبارحة. فإن الله تعالى قد نبَّأنا من أخبار أسلافهم، وما كان منهم في شأنِ القبلة ، وتحويلها من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، فقال سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَنهُمْ عَن قِبْلِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢] ، ويعنى بالسفهاء أهل الكتابين ومن تابعهم من المنافقين ، ثم قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِنَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمُّ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، أي يعلمون علمًا يقينًا أنّ البيت الحرام هو قبلة أبوينا إبرهيم وإسمعيل، وأن أنبياءَهُمْ - وهم من ولد إبرهيم وإسحق - قد استقبلوها وطافوا بها، لأنها مناسك ملَّة إبرهيم، ثم كشف الله حقيقة أمرهم فقال: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِنَابَ يَعْرِفُونَهُ كُمَا يَعْرِفُونَ أَنِنَآءَهُمَّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكُنُّمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمّ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وكذلك هُمُم اليوم، لم يختلف الخُلُق ولم يتغيَّر، في

كتمان الحقائق التاريخية وإغفالها بكُلِّ سبيل. وليس هذا إذَن بعجيب. ولكن العجبُ لمن يُخدعُ منَّا، فيتكلم بمثل ما يتكلمون به، ويجرى على مثل مناهجهم في عزل أوثق حقيقة تاريخية في دراسته الأدبية أو التاريخية. عجب، ولكنَّه فضْلًا عن ذلك حزى أيضًا!

وهذه المطالبة، أعنى مطالبةَ عرب الجاهلية بأن يؤمنوا بأن هذا الرجل، ﷺ، رسولٌ من عند الله ، مؤسسة على مطالبة أخرى ، أشرت إليها في كلمتي السابقة ، في خلال تفصيل البابات الستّ آنفًا ، وهي أن يستمعوا إلى هذا الذي يتلوهُ عليهم، وأن يتبينوا بعد استماعه أنه، وإن كانَ منزُّلا بلسانهم، فهو مع ذلك مباينٌ لَهُ، ولكلام سائر البشر، مباينةً تقطعُ بأنه كلامُ ربّ العالمين. وكلتا المطالبتين حقيقة تاريخية واقعة ، وهما ملتحمتان التحامًا داخلًا ، لا يمكنُ معه أن تنفَكُّ إحداهُما من الأحرى، فجميع النتائج المترتبة على حدوثهما ملتحمة أيضًا التحامًا داخلًا لافِكاك له أو منه. وإذا كان ذلك كذلك، فأيُّ إخلالٍ، أو إسقاطٍ ، أو غَفلةٍ ، أو نسيانٍ ، أو تجاوزٍ ، أو انحرافٍ ، أو تهاؤنٍ ، أو تغاضٍ ، أو توهُّم منفعة في ارتكاب شيء من ذلك ، في سبيل إقناع من لا يؤمن بهذا الدين ولا برسوله = كُلُّ ذلك مفض إلى فسادٍ كبير في جميع الدراسات الأدبية والتاريخية ، لأنه ينتزع أكبر حقيقة تاريخية لا شك فيها من مكانها ، وقد ترتبت عليها نتائج تاريخية وأدبية لا تنفَكُّ منها، في كل لَبِنة من لَبِنات ما نسميه اليوم: « الحضارة العربية » أو « الحضارة الإسلامية » . لا ، بل يحزُّنني أن أقول إنه ليسَ انتزاعًا وحسبُ، بل هو إلغاءٌ ماح لهذه الحقيقة التاريخيّة الواقعة، ويحزنني أيضًا أن أقول إنه قد أدَّى إلى تَشْويهِ كامِل، شوَّه ثقافتنا الماضية كُلُّها، وشوَّه علومنا كُلُّها، وشوَّه تاريخ أسلافِنا، وتاريخ رجالنا، وتاريخ أدبنا، وتاريخ حضارتنا. وكل ذلك مَثِئُوثٌ حاضر في الكتب المؤلفة في زماننا، وفي المذاهب المحدّثة ، وفي الأفكار الجديدة ، وكاد ينتهي الأمرُ بالرفض الكامِـل لكلُّ هذا الماضِي، ولو بقي الأمرُ طويلًا على ما نحرُ عليه، فسينتهي إلى الرفض الكامل بتّة، شئنا أو أبينا. وهذا البابُ من المخاوف يقتضي أن تؤلّف في بيانه كتب، لا أن تلقى فى شأنه كلمة موجزة فى ساعةٍ سانحة ، مقتطعة من هذا الفراغ السَّهل المُمْتِع اللذيذ الذى نعيش نحن فيه اليوم! اللهُمَّ ادفع عنَّا ما نخاف بما شئت ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله .

هذا الذى بَيَّنَتُه ، أصلٌ من الأصول التي بنيتُ عليها منهجي في الدراسة ، بل هو الأصل كُلّه ، وما بعده فرع عنه . ومن هذا الأصل ، سأحاول على عجل أن أفرُغ من بعض قضايا «الشعر الجاهلي» ، ومن قضية روايته ، ومن رسالة محمد بن سلام الجمحي ، في صدر كتابه «طبقات فحول الشعراء» ، ومن بيان بعض ما تضمنته من المعاني المتعلقة بهذا الشعر .

قلتُ : إن نزول القرآن العظيم كانَ حادثةً فريدةً في تاريخ البشر ، منذ كان أبوهم آدمُ عليه السلام ، إلى يوم الناس هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولكن لابُدَّ من تصور هذا الأمر تصورًا صحيحًا ، قبل أن ننتهي إلى ما نريد .

كانَ نهجُ الأنبياء من قبل نزول القرآن، أن يأتى النبى ومعه شيئان: آية وبلاغ، آية معاينة يشهدونها بأعينهم فينخلعون لها من قواهم انخلاعًا يوجب التسليم له بأنه نبى مرسَلٌ، كآيات موسى وعيسى عليهما السلام = وبلاغ ملفوظ يحدِّثهم به بلسانهم، عن وَحْي يوحيه الله إليه، وتجب طاعته فيما يحدثهم به عن ربّه. فلما شاءَ ربّنا أن يختم النبوة في الأرضِ برسولٍ من العرب يرسله إليهم وإلى الناس كافة، اختلف النهجُ اختلافًا بيّنًا. فاصطفى لمشيئته عبده محمدًا وأبى الله أن العرب وحدهم، دون سواهم من البشر الذين أظلَّهم زمانُ بعثته، وأبى الله أن تكون له آية معاينة يشهدونها بأعينهم، فينخلعون لها من قواهم انخلاعًا يوجب عليهم التسليم له بأنه نبي مرسلٌ، كما أوتي النبيون من قبله. فأرسله الله ومعه بلاغانِ ملفوظان:

البلاغ الأوَّل: بلاغ ملفوظ وهو: قرآنٌ ينزَّل عليه من فوق سبع سموات. منجَّمًا بلسان عربِّي مبين، أمره أن يقرأه على الناس على مُكْثِ، وأن يبيِّن لهم أنه كلام الله أنزله بلسانهم، لا كلامُه هو.

البلاغ الثاني: بلاغ ملفوظ أيضًا ، كالذى أوتيه النَّبيُّون من قبله ، يحدثهم به عن به بلسانهم عن وحى يوحيه الله إليهم ، وتجب عليهم طاعته فيما يحدثهم به عن ربّه . وهذا الذى قلته هو معنى قوله على الله المن الذى أوضحًا فى قوله : « ما من نبيّ إلّا وأُوتى من الآيات ما مشْلُهُ آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيتُه وحيًا أُوحى إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة » ، وقوله : « أوتيت الكتاب ومِشْلَه معه » .

ومن أوّل يوم في بعثته، ﷺ، لم يكن معه إلّا ما أُوتِي من البلاغين الملفوظين، وإلّا أن يفجأ الناسَ الذين لبث فيهم عُمُرًا من قبل ذلك أربعين سنة ، فيقول : «إني رسول الله إليكم » فإذا سألوه آية دالةً على نبوته . لم يكن معه أيضًا إلَّا آيات معدودات قلائل، هي أوَّل ما نُزِّل عليه، يتلوها عليهم ويقول: «هذا برهانُ نبوتي ، كلامُ الله ». أيُّ برهانِ هذا؟ وأى فرقي يستطيع الناس أن يجدُوه بين دعواه: « إني رسول الله » ، ودعواه في القليل الذي يتلو: « هذا كلامُ الله »؟ وأنَّى لهم الفَصْلُ في هذه الدعوى ؟ وألحّ عليهم أن يفارقوا دين آبائهم الذي يتوهَّمُونه كان من دين أبويهم إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام، وألحُّوا عليه يسألونه آية كآيات الرُّسُل من قبله، حتى يعلموا أنه رسولٌ من عند الله. وزادت حيرتُهم على الأيام، ولكن الأمرَ ظل على هيئته يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنة بعد سنة، وقريشٌ والعربُ الذين تسامعوا به أو سمعوا ما يتلو، لا يدرون ماذا يقولون ولا ماذا يفعلون. سمعُوا كلامًا يتْلَى، فرازُوه واختبروه وتذوَّقُوه، وزادت حيرتُهم في أمر هذا الرجل، ولكنه لم يزدْ على أن طالبَهُم بأن يتبينوا بأنفسهم أنّ هذا الكلام العربيّ المتلوّ عليهم ، ليس من كلامه هو ، وإنما هو كلامُ الله المباين لكلام البشر ، فإذا تبيُّنوا ذلك علموا أنه رسولُ ربّ العالمين. ولكنَّهم على الأيام أحسُّوا فرقًا غامضًا بين ما يقوله هو بلسانه، وبين ما يتلوهُ عليهم، ولكن الذي طولبوا به أجلُّ من ذلك: أن يتبيّنوا أنه كلامُ الله سبحانه. فعجزُوا، أو عجز جُلهم، أن يجد في نفسه بيان ما يطِالبُ به ، وغلبهُم إلف ما دانوا به ، فلم يجدوا له صفةً ؟ إلا أن يقولوا: «شِاعر» قَدْ أُوتي لسانًا مبينًا، أو «كاهنٌ» له سَجْعٌ نافذٌ إلى القُلوب التي تَرِقُّ وتستجيبُ لجديث الغيب، أو «ساحر»، له لفظ آسِرٌ يفرّق بين المرء وزوجه، «أو معلَّمٌ مجنونٌ»، تتنزَّل الشياطين على لسانه بما يخرجُ عَنْ قُوَى الشعراء والكهَّان والسحرة.

ولكنّ الأمرَ خَرَج عن الطوقِ ، وتتابع التنزيل ، وكثرَ ما يُثلَى ، والمطالبة تزدادُ مع الأيام حدّة وتقريعًا . والحيرة تزدادُ مع الأيام جدًّا وصرامة ، وعلموا في دخيلة أنفسهم أن الأمر جدِّ كُلَّه ، وأنه صادق فيما يتلو : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصَلُ ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصَلُ ﴿ إِنَّهُ اللَّهُ وَالطارق : ١٤] . وعَلِموا أن هذه المطالبة لن تنقطع ، وأنّ قليلَ من آمنوا معه يومئذ ، قد اخترقُوابقوَّة هذا الحاجز الكثيف المتراكب المُظلم ، واستجابوا عَنْ بصيرة إلى هذه المطالبة ، واستطاعوا أنّ يفرِّقوا بين ﴿ كلام الله ﴾ وكلام البشر تفريقًا لم يدع في أنْفُسِهم مكانًا للشكّ . وما هو إلا التسليم بأنَّ هذا التاليه عليهم رسولٌ من رب العالمين . واحتدم الأمرُ .

هذه صورة سريعة مقتضبة ناقصة فاترة ، ولكنّى الآن لا أملك غيرها ، وأنّى لي أن أصف محنة هؤلاء العرب بنزول القرآن ، وما وجدُوا من التمرُّق الهائل ، والتصدع البائن الذى يفتّت القلوب والنفوس والعقائد ، وهم يجدون مسَّ القشعريرة في ما يتلى عليهم ، ثم تنهارُ القشعريرة تحتْ وطأة الإلف المتثاقِل عليها بدين الآباء والأجداد على الدهور المتطاولة ، وعلى الغفلة المُجيطة بالعُقول والنفوس بدين الآباء والأجداد على الدهور المتطاولة ، وعلى الغفلة المُجيطة بالعُقول والنفوس زمانًا بعد زمان ؟ محنة قاسية مرَّقة ، لا نكاد اليوم ندرك منها إلّا الطرف اليسير ، ولكنى أفزع فزعًا شديدًا حين أتخيّلُ نفسى مغموسًا فيها أطلب المخرج ! لا طاقة لى سأقتصر على أكثرهن تعلّقًا بالشعر الجاهلي ، وبروايته كيف انتهت إلى العلماء الرواة سأقتصر على أكثرهن تعلّقًا بالشعر الجاهلي ، وبروايته كيف انتهت إلى العلماء الرواة هو : لم كانت هذه المطالبة ؟ والسؤال الأول الثاني هو : لمن كانت هذه المطالبة ؟ والسؤال الأول على هذه المطالبة ؟ والسؤال الأبلائة بإيجاز كاشفة لبعض الفيوم التي تحيط بالشعر الجاهلي ، على عند عرب الجاهلية . ومكانه في الإسلام . وقد سلفت الإجابة ضمنًا في عدد عرب الجاهلية . ومكانه في الإسلام . وقد سلفت الإجابة ضمنًا في

كلمتى السالفة عن بعض ما تَتَطَلَّبُه هذه الأسئلة ، ولكنى أتممها هنا ليكون الكلام سياقًا واحدًا.

وجواب السؤال الأول: لم كانت هذه المطالبة؟ مقصورٌ كُلُه على سابق علمه سبحانه، ومردودٌ كُلُه إلى مشيئته، ولكن لما كان القرآن المنزَّل لسانًا عربيًا، وكان كلامهم هم لسانًا عربيًا أيضًا، وكان القرآن آية باقية على الدهر، وكانت المطالبة منصبة على أن يفرقوا بين الكلامين العربيين تفريقًا قاطعا فاصلًا بأنه مباينً كُلُّ المباينة لا لما يُطيقُه لسَانهم العربي وحسبُ، بل لما تطيقُه ألسنة سائر البشر أيضًا، وجب النظر في أمرين: أمر اللسان العربي، وأمر أصحابه عرب الجاهلية.

أما اللسان العربيّ ، فبدلالة العقل ينبغي أن يكونَ قد بلغ يومئذ غايةً تفوق ما بلغته غايات الألسنة كُلِّها ، وما سوف تبلُغُه ألسنة البشر إلى آخر زمانهم = في إحكام ألفاظه ، وفي تناسُق جَرْسه ، وفي دِقَّة تركيبه ، وفي انفـــساح تفصيله ، وفي عمق دلالاته ، وفي مرونة تصريفه على وجوه البيان ، حتَّى يمكن أن يحتمل ضربًا من الكلام يدلُّ تذوّقُه على أنه مباين كُلَّ المباينة لكـــلام البشر ، ويكون آيةً دالَّةً على أن التاليه عليهم وعلى الناسِ كافة نبيٌّ مرسلٌ ليكون خاتم أنبياء البشر .

وأما أصحاب اللسان العربيّ ، فمحالٌ أن يفجأ الله عباده من عرب الجاهلية بهذا التبين الذي طالبهم به ، وهم خِلْوٌ من القدرة عليه ، فكان لزامًا أن تكون لهم قُدرة يعلمها سبحانه فيهم ، وإن جهلوها هُمْ من أنفُسِهم من قبل أن يطالبوا بهذا التبينّ ، وإلّا يكن ذلك كذلك ، كانت المطالبة تعجيزًا محضًا لعباده ، يسقط منهم التكليف الذي تقتضيه هذه المطالبة . وتعالى الله عن أن يكلف عباده أمرًا يعلمُ هو سبحانه أنه خارجٌ عن قدرتهم خروجًا لا إرادة لهم فيه . وبديهة العقل تقضى بأنه محالٌ أن تكون هذه القدرة جبلةً فُطر العربُ عليها بلا إرادة منهم ولا عمل ، وإذنٌ ، فهي قدرة مكتسبة بإرادة وعمل .

وبالجمع بين هذين النظرين، يتبيّنُ تبينا جليًّا أن أصحاب اللسان العربيّ يومئذ، كان عندهُم قبل المطالبة، أمثلةٌ حيةٌ مستفيضةٌ بينهم، من كلام قد

مارسوه هم وآباؤهم ممارسة متوارثة بعيدة الأجل، حتى اكتسبوا قدرةً كامنةً فى أنفسهم، تجعله عدلًا من الله لا ظلم فيه، أن يطالبهم بتبين الفرق بين ما عندهم وما تطيقه ألسنتهم هُم، وبين هذا القرآن الذى أطاقه لسائهم العربيّ، وتنخلع قواهم أن تطيق ألسنتهم هُمْ أن تأتى بمثله، انخلاعًا يوجب التسليم بأنه مباين لكلام البشر، وأن تاليه عليهم نبى مرسلّ. وهذا الكلام هو ما ألفوه دهورًا إلى زمانهم من بارع كلام فصحائهم الأبيناء، وأعلاه عندهم وأشرفه وأبقاه فى صدورهم وعلى ألسنتهم هو شعر شعرائهم الذين كانوا فى الجاهلية، منذ دهور متطاولة إلى يوم طولبوا هذه المطالبة الفاصلة. وهذا هو ما نسميه «الشعر طولبوا به، هذا مختصر إجابة السؤال الأول.

أما جواب السؤال الثاني: لمن كانت هذه المطالبة ؟ فإنها كانت عامةً لا تخصُّ نفرًا من العرب دون نفر، ولا قبيلة دون قبيلة، ولا تفرق بين ذكر وأنثى، ولا بين صغير وكبير، ولا بين قرشى وغير قرشى، ولا بين عدنانى وقحطانى، ولا بين يمانٍ وحجازى، ولا بين حُرِّ وعبد، ولا بين عربى صليبة وعربى قد اكتسب العربية بالمعاشرة، ولا بين بادية وحاضرة، ولا بين أعرابي من أهل الوبر وعربي من أهل المدر، فكلهم عربي، ولسانه عربي، والمطالبة عامة لجميعهم بلا فرق أو تمييز، وهذه بلا ريب حقيقة واقعة أيضًا. لا ينقضها شيءً كان على عهده على عهده

أما جواب السؤال الثالث: ماذا كانَ أثر هذه المطالبة فيمن طولبوا بها؟ فإنى حاولت آنفًا محاولة خاطفة أن أصفَ ما أصابهم من الفزع والحيرة ، وما وجدوا في بناء أنفُسهم من التصدّع والتمزّق ، وهُمْ يجدون مسَّ القشعريرة والرهبة مما يتْلى عليهم من كلام الله ، وذكرت أيضًا من قبل أن هذه المطالبة المفاجئة المذهلة ، قد أرهفت قُدرتهم على التذوُّق ، على تذوُّق ما يسمعونه من نبيل القول وشريفه ، لينفُذَ كلَّ امريَ منهم بإحساسِه المتوقِّد إلى تبينُ هذا الفرق الهائل الذي طولب بتبيُّنه ، والذي يجِدُ مَسَّهُ في أعمق أعماق نَفسه ، مع تضارُب الأمواج المتلاطمة

فيها من مخاوفِ مفارقة ما أَلِفوهُ زمانًا طويلًا من عقائدهم وعقائد آبائهم ، وكانَ مِمَّا يثيرُ هؤلاء المطالبين أيضًا أن يشهدوا عيانًا ، يومًا بعد يوم ، تفَلُّتَ رَجُل كان بالأمس. منهم، لا ينكرون عقله ولا منزلته، قد تبيَّنَ هذا الفرق الفاصل القاطع، فيخرُجُ فجأة نافرًا إلى الإيمان بأنّ تالى هذا القرآنِ نبيّ من رب العالمين مرسلٌ ، وأن هذا القرآن كلام الله سبحانه المباين لكلام البشر . واحتدم في كُلِّ نَفْسِ جُهدٌ طاغ يومًا بعد يوم ، وشهرًا بعد شهر ، وسنة بعد سنة . يبذلُه كُلُّ امرىء في ذات نفسهُ بجدّ لا يفتر ، وبشغَفِ لا يَهْمَدُ ، مُسْتعرضًا متذوِّقًا ما يجدهُ عند نفسه ، وما يتلقفه من عند غيره، من نبيل القول وشريفه، ولا سِيَّما هذه الوفرة الوافرة من شعر شعرائهم الذين كانوا في الجاهلية . كان هذا شأن المعاند الشديد العداوة لما يسمعُه من قول يزلزلُ عقائد الآباء والأجداد، وشأن المقارب الذي يُقْبل ويدبر، ويقدّم رجلًا ويؤخِّر أحرى، وشأن المستبصر الذي يضيء له البرقُ طريقه ساعة ثُمَّ تلفُّه غياهب الظلمة ساعة ، ولكنه مُصرُّ على أن يُبْصِر ويستبينَ . وإذنْ فلم يكن نزولُ القرآن العظيم داعيًا إلى هجر شعر الجاهلية ، بل كان حافرًا مثبًّا لهذا الشعر في النفوس بتكرار التذوُّق والتأمُّل، وبالمقايسةِ بين بعضه وبعض، وبينه وبين ما طولبوا بأن يتبيَّتوا أنه «كلام الله» المفارق لكلامهم ولكلام البشر. وكان هذا القرآن العظيم مستجيشا أيضًا في كُلِّ نفس رغبةً في الاستكثار من شعر جاهليتهم ، وكان فوقَ ذلك صاقلًا بروعته ورهبته لأقصى قدرة على تذوُّق الكلام تذوُّقًا حُرًّا نافذًا مرهفًا يستطيع ، أو يحاولُ ، أن يخترقَ الحاجز الكثيف الفاصل بين أرُّوع ما تطيقه ألسنة البشر ، وبين هذا القرآن العظيم الذي يباينُ كلامَ البشر ، وإن كان منزَّلًا بلسان ألسنة هذا البشر ، وهو اللسان العربيُّ المبين .

وههنا أمرٌ لابُد من محاولة توضيحه وبيانه بإيجاز، فإنى قد أكثرت من ذكر «التذوَّق» قديمًا وفي هذه الكلمات، دون أن ألقى بالًا إلى وجوب بيانه قبل الإفراط في ذكره. وهذا التذوُّق ليس عَمَلًا هينًا ميسورًا ممهَّد الشبل، ولا عَمَلًا موقوتًا بساعته حتى إذا فُرغَ منه ذهبت حاجة النفس إليه، بل هو عملٌ حفيٌ متشعِّبٌ معقَّدٌ يخالط العقل والنَّفْسَ ويثيرها ويهزُّها ويُقلِّبُها بتقَلَّب

الخواطرِ تقليبًا لا تكاد تبلغُه الصفة، ثم هو عملٌ غائرٌ في النفس المتذوّقة، قائم فيها أبدا بسلطان قاهر، يزيدها على الأيام وعلى الممارسة حرصا عليه وشغفا به، ثم لا ينفك عنها ولا تنفَكُ عنه، لأنّ الإنسان، كما قلت قديمًا في بعض ما كتبتُ، هو في إرث طبيعته فنانٌ مُعْرِق، فإذا نشب «التذوّق» في سرّ نفسه لم يُفلته، وإن حاولَ التفلّت منْ إساره، وأيضًا فإن هذا التذوّق الذي تمارسُه النفسُ المتذوّقة للبيانِ، ليسَ عملًا يتعلّق بظاهر الألفاظ والتراكيب والصّور، هذا وهم غالبٌ على كثير من الناس، وشرّه ما تجدهُ في زماننا هذا، حتى انتهى الى نزاع غت بين الغثاثة في أدبنا الحاضر. بل التذوّق عملٌ مُركبٌ متراحب متعانق شديد التعقيد، يبدأ من عند ظاهر الألفاظ والتراكيب والصّور، لينفُذُ منها إلى أعمق أعماق المعانى التي تنطوي عليها، وإلى أدق دلالاتها على تنوّعها منها إلى أعمق أعماق المعانى التي تنطوي عليها، وإلى أدق دلالاتها على تنوّعها وإلى أخفى الأمواج المتدسِّسة التي تُصادِم النفس المتذوّقة برفْق ثم بعُنْفِ بَييسِ وانتشارها، وإلى أخفى الأمواج المتدسِّسة التي تُصادِم النفس المتذوّقة برفْق ثم بعُنْفِ بَييسِ مُدَمْدِم، يفجّر فيها مغاليق الكنز الدفين الذي استودعه الله في الإنسان منذ مُدَمْدِم، يفجّر فيها مغاليق الكنز الدفين الذي استودعه الله في الإنسان منذ علم على عبينه وبهشيئته سبحانه، وهذا الكنز هو «البيان» يقول الله سبحانه: ﴿ فَلَ عَلَمَ الْفُرَهُ الْمَيْنَ فَلَ عَلَمَ الْفُرَانَ فَى الْإنسَان مَنْدُ المُنْ عَلَمَ الْفُرَانَ فَى الْإنسَان مَنْدُ المُنْ عَلَمَ الْفُرَانَ فَى الْإنسَان مَنْدُ المُنْ عَلَمَ الْفُرِانَ فَى الْإنسَان مَنْدُ المُنْ عَلَمَ الْفُرَانَ فَى الْوَلْمَانَ فَى الْإِنْهَانَ اللهُ عَلَى عَلْمَ الْفُرَانَ فَى الْمُنْ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَمَ الْفُرَانَ فَى الْمُنْ الذي المُنْ الذي المَنْ اللهُ عَلْمَانَ اللهُ عَلَمَ الْمُنْ اللهُ عَلَى المُنْعِلَى عَلَمَ الْمُنْ اللهُ عَلَى عَلْمَ الْمُنْهَا عَلَى عَلْمَ اللهُ عَلَى عَلْمَ الْمُنْ اللهُ عَلَى عَلْمَ الْمُنْ اللهُ عَلَى عَلْمَ اللهُ اللهُ عَلَمَ اللهُ اللهُ اللهُ المُنْ اللهُ المُنْ اللهُ عَلْمُ اللهُ المُنْ اللهُ المُنْ اللهُ المراق المُنْ اللهُ المنافِق المُنْ اللهُ المنافِق المُنْ المُنْ المُنْ اللهُ عَلْمُ الْمُنْ المُنْ اللهُ المنفس المنفر المؤلّق المُنْ المنفر المُ

[الرحمن: ١ : ٤] .

فظاهر إذن أن هؤلاء العرب المطالبين بأن يتبينوا مفارقة القرآن العظيم لكلام البشر، وأنه كلام الله سبحانه لا كلام التاليه عليهم، وأنه عندئذ هو آيته الدالة على أنَّ تاليه عليهم نبى «مرسل» من ربّ العالمين، يجب عليهم التسليم له بنبوّته = لم يكن تذوّقهم لما يُثلَى عليهم تذوقًا لظاهر لفظه وتراكيبه وصوره وحسب، بل كان تذوقهم نافذًا أيضًا يغوص إلى أعمق الأعماق التي تدلُّ عليها الألفاظ والتراكيب والصور، ويتشعَّبُ تذوقهم مع أدق دلالالتها ومعانيها وينفذون بهذا التذوّق المرهف إلى أغمض ما يكمن فيها من الفكر والنظر والحجة، وتُصادِمُ الألفاظ والتراكيب والصُّور والمعانى والدلالات نُفُوسَهم مصادمة تفجّر أغمض إرثٍ كامن في الإنسان، وهو البيان. ولذلك فإن من مصادمة تفجّر أغمض إرثٍ كامن في الإنسان، وهو البيان. ولذلك فإن من

آمن بنبوته على بعد أن تهدّم الجدار الحاجز الكثيف الفاصلُ بين أروع ما في الشعر الجاهلي وبين هذا القرآن المنصوب لهم آية على نبوته على لم بعتر هذه العقبة الكؤود إلا ومعه علم كثير بما نُزّل من القرآن يومئذ، علم بمعانيه، وعلم بحججه التي يُحَاجُ بها من كفر، وعلم بما يدلُهم عليه من آياته في الأرض والسماء، وعلم بما يؤدّبهم به من الأخلاق والأعمال، وهذا هو فرق ما بين آية نبوة محمد على الدالة على نبوّته، وبين آيات من سبقه من الأنبياء الدالة على نبوتهم. فآيته على أن أمن به، وآيات المؤتهم، فآيته على الأنبياء الدالة على الأنبياء الدالة على الأنبياء مدوتها المؤتهم، ولكنها تنقضي بالقضاء حدوثها.

ولذلك، فإن الأمة مجمعة، إلَّا من شذَّ، بأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ عند كلِّ منهم من العلم بالقرآن وبسنته صلَّى الله عليه وسلَّم، وهي ما أوتيه من الوَحْي كما أوتي النبيُّون من قبله ، قدرٌ لا يلحقه فيه أحدٌ من التابعين ، سواءٌ كان الصحابيُّ قديم الصحبة له عليه منذ أول البعثة ، أو كان حديث الصّحبة لم يدركه إِلَّا في آخر أيامه ، بأبي هو وأُمِّي ، قبلَ أن يقبضَـهُ الله إليه ويُـرْفَع الوَحي . وذلك لأنّ كُلّ صحابيّ لم يَخرجْ من جاهليته إلى إسلامه، إلّا بعد أن استوعبَ بهذا التذوق النافذ العميق، قدْرًا هائلًا من علم الكتّاب المنزَّل، حين تهدُّم الحاجز الكثيف، فانكشفَ لَهُ أن هذا الكتاب «كلام الله» المباين لكلام البشر، والجُهْد الذي بذله كلُّ صحابيّ في هذا التذوِّق الذي وصفتُ، جهدٌ لا يُستطاع تحديده أو تصوُّره، والذي عاناه كُلُّ منهم في سبيل هذا التبين ا الفاصل بين القرآن وبين كلام البشر، محنةٌ شديدةٌ على النفس الإنسانية لا يبلغُ النظرُ النفاذَ إلى حقيقتها ، ولذلك رفعهم الله درجات فوق سائر عباده ، وقال لهم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتَ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكِر وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران ] ولذلك أيضًا قال رسول الله ﷺ : «دعوا لى أصحابي، لو أنفق أحدكم مثل أحُد ذهبًا لم يبلُغْ مُدَّ أحدهم أو نصيفه» وَلذلك أيضًا شدَّدَ علماء الأمة النكير على من سبُّ أصحاب رسول الله ﷺ،

أو غمَسَ لسانه أو قلَمُه بسوء الأدبِ وقلة الحياء من الله ، في شيء مما وقع بينهم من خلافٍ أو نزاع أو قتال .

وأحبُّ أن أختم هذا الحديث عن أصحاب رسول الله عليه وما عانوا ، بخبر رواه الإمامُ أبو عبد الله البخاري في الأدب المفرد، « قال : حدثنا بشر بن محمد قال ، أخبرنا صِفوان بن عمرو قال ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نُفَيرْ ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا ، فمَرّ به رجُلٌ فقال : طُوبي لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ! و اللهِ لَوَدِدْنَا أَنَّا رأينًا من رأيتَ ، وشهدنا ما شهدتَ! فاستُغْضب (المقداد). فجعلت أعجب، ما قال إلَّا خيرًا! ثم أقبل (المقداد) عليه فقال: ما يحملُ الرجُلَ على أن يتمنَّى مَحضرًا غيَّبَهُ الله عَنْهُ ؟ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه؟ والله لقَدْ حَضَر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كَبُّهُم الله على مناخِرهم في جَهَنَّم، لم يجيبوه ولم يصدِّقوه! أو لاتحمدونَ الله عز وجَلَّ إِذْ أَخرِجَكُمْ لا تعرفون إلَّا ربَّكُمْ ، فتصدِّقُون بما جاء به نبيكم ، قد كُفيتُـمُ البلاء بغيركُـم ( يعني الصحابة ) والله لقد بُعثِ النبيِّ ﷺ على أشدٌّ حالٍ بُعِث عليها نبيّ قط، في فترة وجاهلية ما يرونَ أن دينًا أفضلُ من عبادة الأوثانِ، فجاء بفرقانِ فَرَّق به بين الحقِّ والباطل، وفرَّقَ به بين الوالد وَوَلدِه، حتى إن كان الرجُلُ ليَرَى والدهُ أو وَلَـدَهُ أو أخاه كافرًا = وقد فتح الله قُفْلَ قلبه بالإيمان = ويعلم أنه إن هلك دخل النارَ ، فلا تقرُّ عينُه وهو يعلم أنَّ حبيبهُ في النار = وإنها للتي قال الله عزّ وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَلِجِنَا وَذُرِّيَّكُلِنَا قُــرَّةَ أَعْيُنِ ﴾ ﴾ [ سورة الفرقان ] .

وهذا خبر يُدمِي القلوب ويبكي الأعيُن ويُلقى الرُّعْبَ في النفوس، وهو عظيم الدلالة على مقدار التصدُّع والتمزق الذي لقيه العربُ الذين كانوا في الجاهلية، ثم اجتازوا الهولَ كُلَّه إلى الإسلام وصحبوا تالى القرآنِ عليهم ﷺ، ولكنْ يا سوءَ ما صرنا إليه: أن يجترىء مجترىء غيبه الله عن محضر لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه، فيهجم على صحابة رسول الله ﷺ، ويغمس لسانه وقلمه فيما وقع بينهم من خلافٍ، ويقضي في أمر إسلامهم لله قضاءً يوجب له

أَن يقول: إِن فلانًا وفلانًا وفلانًا من الصحابة لم يدخل الإِيمانُ قلوبهم قطُّ! اللهمَّ اغفر لنا وتَغَمَّدنا برحمتك وقنا عذاب النار.

هذا أيضًا مختصر جواب السؤال الثالث ، مع استطراد لا يلتحمُ به ، ولكنْه لا ينفصل عنه .

\* \* \*

أظنُّ أنى قد استطعت أن أبين عن نفسى بعض الإبانة في أشياء مختلفة تتعلَّق بالشعر الجاهلي. ولكن بقيت منه مسألة يحسن أن أُدَلِّلَ عليها من نفس الطريق الذي سلكته ، فقد صار بينا فيما أظنُّ أن نزول القرآن العظيم ، كان حادثة فريدة في تاريخ البشر ، وأنها حقيقة تاريخية واقعة = وأنّ مطالبة عرب الجاهلية بتبيَّن أن «كلام الله» الدال على نبوّة تاليه حقيقة تاريخية واقعة = وأن النتائج المترتبة على هذه المطالبة هي أيضًا حقائق تاريخية واقعة .

فمن هذه النتائج هذا التذوّق الذي لا يكون للمطالبة به معنى يُعْقَل البتة إلا أن يكون كائنًا في عرب الجاهلية المُطالبين بأن يتبينوا أنّ هذا الكلام المتلوّ عليهم آن يقطعوا بأن صاحبها نبيّ الله ، كما قطعت آياتُ موسى بأنّه نبيّ ، وآيات عيسى بأنّه نبيّ ، وأنّ البلاغ الملفوظ ، هو كالبلاغ المعاين بالمشاهدة ، ينخلعون له من قواهم انخلاعًا يوجب التسليم بأنّ صاحبه كمثلهم ، لا يستطيعُ أن يأتى به من عند نفسه وبفعله ، بل هو من عند رب العالمين ، أنزله عليه سبحانه بسلطانهِ القاهر ؛ ليكون آية على نُبُوته . والتذوّق المُؤشى إلى هذا التبيّن الذي لا عَهد للبشر بمثله ، ينبغي أن يتمّ لأصحابه بَعْدَ الدَّربة الطَّويلة المتوارثة . ثم لا يبلغُ هذه المرتبة من القدرة على الفَصْل في هذه الدَّربة الفريدةِ في تاريخ الألسنة البشرية ، إلّا بعد أن يمارسَ الفصْل والتفضيل والمفايلة والمقايسة على ضروب من الكلام قد بلغت القِمَّة الشامخة في البيان والمايلة والمقايسة على الدلالة بالألفاظ والتراكيب والصور ، أقصى التوتَّر المفضى وبلغت من العُمق في الدلالة بالألفاظ والتراكيب والصور ، أقصى التوتَّر المفضى إلى سرّ البيان الكامن في نفوس البشر . وإلّا يكن ذلك كذلك فإن اختراق إلى سرّ البيان الكامن في نفوس البشر . وإلّا يكن ذلك كذلك فإن اختراق إلى سرّ البيان الكامن في نفوس البشر . وإلّا يكن ذلك كذلك فإن اختراق

الحاجز بين البيان الإنساني والبلاغ الإلهي الملفوظ، يكادُ عندئذ يبلُغ حدًّ الاستحالة، مع ما في المطالبة به فجأة وبلا مثال سابق من المناقضة للإلف الراسخ في الطبائع. ولذلك كان مقطوعًا به أنّ لُغَتهم عند البعثة كانت قد اكتسبت من المرونة واللطف والدقة والإحكام الفائق، مبلغًا يهيئها لحمل هذه الآية الفريدة في آيات النبيين = وأن أنبل كلامهم وأشرفه، وهو الشعر الجاهلي، كان قد بلغ أيضا مثل هذه المنزلة ليكون تذوَّقهم إياه مُعِينًا لهم على تذوُق البلاغ الملفوظ الذي أنزله الله على رجل منهم، قد لَبثَ فيهم عمرًا من قبله أربعين سنة، ما كان يدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ثم جاءهم به ليكون آية نبوته، دون الآيات المعاينة التي انخلع لها البشر من قواهم، فآمنوا بالمبعوثين إليهم من أنبياء ربِّهم.

وهذه أيضًا حقيقة تاريخية واقعة أخرى، ناتجة عن الحقيقة التاريخية الواقعة، وهي مطالبة عرب الجاهلية الذين أظلهم الإسلام بأن يتبينوا في سرّ أنفسهم أن هذا القرآن المتلوَّ عليهم، هو «كلام الله» لا كلام النبي على ، وأنه مباينٌ لكلام البشر، ومعجزٌ قدرتهم بل قدرة الثقلين جميعًا: ﴿ قُل لَمِن اَجْتَمَعَتِ اللهِ شُلُ وَالْجِنُ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَلَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلُو كَانَ بَعْشُهُم لِي اللهِ فَلَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلُو كَانَ بَعْشُهُم لَي اللهِ فَلَا اللهُ وَالْمِنْ فَلَ اللهُ وَالْمِنْ فَلَى جَبَلِ لَرَأْيَتُهُ خَشِعًا لَم الله ورسوله ، فهذا حق كلام الله ، المنزل على نبيته على إلام المنزل على نبيته على الله ، المنزل على نبيته على الله ورسوله ، فهذا حق كلام الله ، المنزل على نبيته على الله ، المنزل على نبيته على الله ، المنزل على نبيته على الله ورسوله ، فهذا حق كلام الله ، المنزل على نبيته على الله ، المنزل على نبيته على الله ، المنزل على نبيته على المنزل على نبيته الله الله ، المنزل على نبيته على نبيته الله ، المنزل على نبيته الله المنزل على نبيته الله و المنزل على نبيته الله المنزل على نبيته الله و المنزل على نبيته الله و المنزل على نبيته المنزل على المنزل على نبيته المنزل على المنزل على نبيته المنزل على المنزل على نبيته المنزل على ال

وإذنْ ، فالشعر الجاهليُّ الذي مارس عليه عرب الجاهلية تذوُّقهم قرونًا حتى بلغ التذوق ما بَلغَ ، تكمن فيه وفي بيانه هذه الصفات المرْبية على ما في سائر الألسنة من الصّفات إرباءً حقيقًا بالتأمُّل والتبينُّ ، لأن هذه حقيقته التي دلَّتْ عليها هذه المطالبة الفريدة لجنس واحد من البشر في زمانٍ واحد من الأزمنة ، ختمت بآيته النبوَّةُ في الأرض إلى أن تقوم الساعة . وإذا كانت هذه الحقيقة قد

غُمِّيتْ علينا دهرًا. ولا نزال نزدادُ عنها عَمىً، فإنّ ذلك لا ينفى عنها أنها حقيقة قائمة، وإنما هو الإلف والعجز والتهاون وقلة المبالاة، ورذائل فينا بعد ذلك كثيرة. إنها حقيقة واقعة كامنة في القليل الباقي بتقصيرنا من الشعر الجاهلى، يعلم ذلك من يعلمه، ويجهله من يجهله، ويقرّه من يقرّه، وينكره من ينكره. وجاهله مقصِّر في حقّ نفسه وفي حق الله عليه، ومنكره ليس إنكارُه ما ينكر منه بأعجب ولا أغربَ من إنكار عرب الجاهلية الذين كفروا بالنبوّة، وهم يحسون في دخيلة أنفسهم أن دليل النبوّة، وهو القرآن، قد أعجزهم وانخلعوا له من قواهم بالعجز الفاضح، ولكنهم أصروا، مع ذلك، على الإعراض والكفر إصرارًا، حتى قضى الله فيهم قضاءه، بظهور الإسلام على الكفر ضربة لازب.

\* \* \*

كانَ عربُ الجاهلية الذين اجتازوا هذه المحنة الهائلة المفزعة المزلزلة التي المتحنوا بها دون غيرهم من البشر، وامتحن بها تذوَّقهم للبيان الإنساني حتى تبينوا فرق ما بينه وبين البيان الإلهي = كان هؤلاء قد اجتازوا المحنة ومعهم شِعْر جاهليتهم الذي مارسوا عليه أروع تكليف في تاريخ البشر. فلم يفارقوا هذا الشعر بعد ذلك في غُدُوِّ ولا رَوَاح، ولا في منزل ولافي مسير، ولا في ليل ولا في نهار، ولا في سِلْم ولا في حرب، ولا في جماعة ولا في خلوة، وقد دلَّت الأخبار المتظاهرة عن أصحاب رسول الله على أن ذلك كما وصفت. وأن رسول الله على كان يشاركهم مصغيًا في مجالسهم، وأنه كان يستنشدهم شعر جاهليتهم في إقامته وفي مسيره. ودلت الأخبار أيضًا على أن ذلك كان جاريًا على عادتهم الموروثة المعرقة منذ أقدم عصور الجاهلية، قد للك كان جاريًا على عادتهم الموروثة المعرقة منذ أقدم عصور الجاهلية، قد ألموها إلفًا لا يزول ولا يتحوّل ، ولم يكن ذلك بعجيب ولا مناقض لما خضعوا له من محبّ ذكر الله بألسنتهم، ولا لطول تلاوتهم لكلام ربهم واستماعه فتقشعر له قلوبهم خشوعًا وإسلامًا، ولا لتدبَّر القرآنِ التماسًا لما فيه من العلم والحكمة، بل العجيبُ أن لا يلزموا ما كان عليه أمرهم في الجاهلية من تذوَّق البيان، الذي بل العجيبُ أن لا يلزموا ما كان عليه أمرهم في الجاهلية من تذوَّق البيان، الذي

أرهف قلوبهم وعقُولهم حتى اجتازوا به المحنة التي هلك عليها منهم من هلك، ونجا من نجا. وكان ذلك شأن الصحابة وسائر من أشلَم من عرب الجاهلية في الحاضرة والبادية، لم يزدهم نزول القرآن وتحدِّيه لهم إلا حرصًا على شعر جاهليتهم، وشَغَفًا بإنشاده وتمثله في المشاهد وفي الخلوات. ولحق رسول الله وجاء بالرفيق الأعلى وجاء أبو بكر، وجاء عمر، وجاء عثمان، وجاء علي، وجاء معاوية، وذلك شأن أهل الحواضر من الصحابة، وأهل البادية، بمِّن صحب أو وَفَد عليه على، أو أشلَم ولم يَضحبه. وفي خلال تلك السنوات المتطاولة، نشأت الناشئة من أبنائهم ومن مواليهم، وممن أسلم من جميع أطراف الأرض العربية وغير العربية، وكان شأنهم جميعًا شأن جلّة الصحابة، واكتسبوا الأرض العربية وغير العربية، وكان شأنهم جميعًا شأن جلّة الصحابة، واكتسبوا منهم هذا التذوق الرائع النافذ المذهِل، بممارسة تذوّق هذا الشعر الجاهلي الذي هو ديوان علم العرب، كما قال عمر رضى الله عنه، والذي هو الغاية التي يُفضي تذوقها إلى تبيّن أن هذا المتلوّ في المساجد والمشاهِد والمحافل العظام، هو «كلام الله»، فتقشعر له قلوبهم، كما اقشعرت قلوبُ الصحابة من قبلُ حين امتحنوا، وبعد أن جازوا المحنة مسلمين.

وبيّن كُلَّ البيان أن أمر الشعر الجاهلي في عهد الصحابة ، ثم في عهد كبار التابعين ، كان جدًّا كلَّه ، وأنّه كانَ منصوبًا قائمًا في الأنفْس والألسنة ، في الشهود والخلوة ، لهذا التذوّق النافذ البصير الهادي إلى تذوق القرآن تذوقًا تنخلع له النفسُ من كُلِّ قوتها حتى تستيقن أنه «كلام الله» الذي تخشع له الجبال وتتصدّع ، وإذا كان ذلك كذلك ، وهو الحقَّ إن شاء الله ، فهلُ يمكن أن يتصوَّر امرؤ أدرك أن ذلك كُلَّه كان حقيقة تاريخية واقعة لا شكَّ فيها ، أن يعمد صحابي أو تابعي ، في حاضرة أو بادية إلى وضع شعرِ على لسان امرىء القيس أو طرفة أو أبي دُؤادِ الإياديّ ، أو المتلمس ، أو النابغة ، أو زُهير ، أو من شمت من شعراء الجاهلية = إلا أن يكون هذا المرء هازلًا هزلًا لا خير فيه ، أو لا عقل فيه إن شئت .

وإذا كانَ هذا الشعر من الوفرة والكثرة والتنوّع، على قدر وفرة الصحابة

الذين أسلموا، ووفرة من كان معهم ممن لم يصحب رسولَ الله على، في الحواضر والبَوَادى، فهل تظنُّ أن أحدًا كانَ في حاجة إلى وضع شعر على ألسنة شعراء الجاهلية؟ وإذا كان تناشدُ الأشعار، على سنتهم في جاهليتهم، قائمًا في كُلِّ مكان، فهل تَظنَّه سهلًا على أحدِ أن يفضح نَفسه بافتعالِ شعرٍ ينسبُه إلى جاهليّ قديم، وفي الناس من هو قادرٌ على تكذيبه والنكير عليه؟ وعلى ذلك قس أمر كبار التابعين، فإن ذلك الوضع محال أن يكون كان، أو أن تكون بأحدٍ منهم حاجةٌ إلى هذا الوضع الذي هو هزلٌ، بل شرٌ من الهزل.

وإذن، فالشعر الجاهلي ظُلَّ سليمًا مبرًاً محفوفًا بالصدق، حتى انقضت نحو مئة عام منذ هجرته على من مكَّة إلى المدينة، وإن كانت قد تناقصت وفرته، كما قال محمد بن سلام في كتابه «الطبقات» وذلك «حين هلك من العرب بالموت والقتل من هلك»، في الفتن، وفي الفتوح التي امتدت من أقصى الصين إلى أرض الأندلس، ثم بما كان من تفرُق حفاظه ومتمثليه في البلدان المتباعدة، وإن كانت البادية بعد ذلك كُلِّه قد حفظت على العرب ذخائر ما كان من شعر جاهليتهم، بفضل من بقي فيها من الأبناء والنساء والشيوخ الذين لا طاقة لهم بقتال ولا بغزو ولا بضرب في الأرض البعيدة الغريبة.

وبذلك نعلم علم يقين أيضًا أنّ العلماء بالشعر من أهل البصرة وحدها والذين لكلِّ رجلُ منهم قول فيه ، كما قال ابن سلام ، والذين بدأ ذكرهم بأيي الأسود الدؤليّ المتوفي في الطاعون الجارف سنة تسع وستين ، ومات عن خمس وثمانين سنة ، وولد في الجاهلية قبل البعثة بثلاث سنوات ، وأخذ عنه الناس الشعر ، كما ذكرتُ حتى انتهت رواية من أخذ عنه إلى من بعده ، إلى أن انتهت الرواية إلى عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي المولود سنة تسع وثلاثين من الهجرة ، والمتوفى سنة ١٢٧ ، ومعه يومئذ أبو عمرو بن العلاء الذي بقي بعده بقاء طويلًا حتى مات سنة ١٥٩ = أقول : بذلك نعلم أنّ هؤلاء العلماء بالشعر الي زمن أبي عمرو قد تلقوا شعر الجاهلية سليمًا مبرّاً خاليًا من الشوائب ، وإن كان لم ينته إليهم منه إلّا القليل ، وصدق أبو عمرو بن العلاء حين قال :

(ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلّا أقلُه، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثيرٌ » وصدق مرةً أُخرى ، لأنّ هذه حقيقة تاريخية أخرى ، تدلُّ عليها الحقائق التاريخية الواقعة التي سقتها ، دلالة تقطع عليها بالصّدق ، وبذكاء قائلها ونفاذ بصره ، وإن كان ابن سلام قد فسّرها تفسيرًا سيئا جدًّا حين قال : «فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب (أي عن الشعر) . وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم . ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ... راجعوا رواية الشعر » . وقد بينت فساد هذا التعليل آنفًا بحمد الله .

وإذن فالشعر الجاهلي، السليم المبرَّأ من العيب، ظَلَّ محفوفًا بالكرامة والصدق حتى تلقَّاه العلماء بالشعر إلى أواخر المئة الأولى من الهجرة، وكان، قبل أن تُفتحَ أبواب العلوم العربية في عهدها المبكِّر، منصوبًا للتذوُّق البَصير لأعلَى البيان الإنساني وأسناه، وكان الناس يتلقونه جوادًا سابقا كما وصفه ابن مقبل فيما ذكرته آنفا:

إذا متُّ عن ذكر القوافي، فلن ترىٌ وأكثر بيتا شاردًا ضربتْ لَهُ أغرَّ غريبًا، يمسَعُ النَّاسُ وجُهه

لهَا تاليًا مثلى أطبٌ وأشعرا حُزُون جبال الشعر حتى تيسَّرا كما تمسح الأيدى الأغرَّ المشهَّرا

وبما قاله الجاهليُّ الآخر، في أريحية سامعه وخيلائه.

قوافي تُعجبُ المتمثِّلينا لوَانَّ الشعر يلبس الرتدينا

فإن أَهْلِكُ فقد أبقيتُ بعدي لذيذاتِ المقاطع محكماتٍ

وأمًّا كبيرُ المشككين في الشعر الجاهليّ والنافين لصحة ما عندنا منه ، فقد أساء وأوقد فتنةً لم تَحْبُ بعدُ حين ختم كلامه وشكه بقوله: «أما نحنُ فمطمئنونَ إلى مذهبنا ، مقتنعون بأن الشعر الجاهليّ أو كثرة هذا الشعر الجاهليّ لا تمثل شيءًا ، ولا تدلُّ على شيء ، إلا ما قدَّمنا من العبث والكذب والانتحال . وأنّ الوجه إذا لم يكن بُدِّ من الاستدلال بنص على نصّ - إنما هو الاستدلال بنصوص القرآن على عربية هذا الشعر ، لا بهذا الشعر على عربية القرآن » .

ويؤسفني أن أقول إن صدر كلامه عن بطلان دلالة الشعر الجاهليّ على شيء، دالَّ على تقصير محزنٍ في الاطلاع على هذا الشعر، وعلى سوء تذوُّقه. ومع ذلك ، فقد بيَّنْتُ مرارًا أنه قد نقض هو نفسه مقالته هذه بما كتبه بعد ذلك عن بعض الشعر الجاهلي. وأما مسألة الاستدلال التي ذكرها، فإن كان يريد بقوله «عربية القرآن» و «عربية الشعر الجاهلي» ما يتعلق بالنحو والصرف واللغة وما إليها - وهو لا يريدُ ذلك بلا شك - فإن الاستدلال بالشعر الجاهلي على بعض ما في القرآن، وبالقرآن على بعض ما في الشعر الجاهليّ من نَحْو وصرف ولغة، إنما هُو أمرٌ هينٌ لا خطر له في بحثه ، وكلاهما مألوف معروف في جميع كتب العربية . وإن كان يريد بقوله : «عربية القرآن» أن يستدلُّ بعربية الشعر الجاهلي أن القرآن عربيٌّ مبينٌ ، فأظنُّه ظاهرًا جدًّا أنه محالٌ أن يجد امرءًا عاقلًا أو غير عاقل من الماضين والحاضرين، ومن العرب ومن سائر المسلمين، من فعل ذلك أو فكّر فيه ، إلَّا أن يكون عني أعجميًا مستشرقًا من أهل زماننا فَعَله أو كتبه! أما العرب والمسلمون منذ نزول القرآن، فإنهم كانوا يتذوقون هذا الشعر الجاهلي، أو يحرصون عليه ليتذوقوه ، حتى يجدوا في أنفسهم القدرة على التذوُّق الفاصل الذي يرهف إحساسَهُم ليستمعوا إلى «كلام الله» مخبتين مُقِرين لنبيِّهم بأنه أدَّى الأمانة، وبلُّغ عن ربِّه ما أمرَه أن يبلغه.

وإذن فهى كما ترى كلمة مُطَّرَحة لا وزن لها ولا خير فيها. وهي مبنية على مغالطة مزيَّفة، وليس فيها إلا رنينُ ألفاظ مركبة ليس لها معنى ولا حقيقة. ومع ذلك، فقد صدعتْ في بعض العقول صدْعًا بائنًا، وأفسدت بفسادها بعض ما كانَ خليقًا أن يَسْلَم ويصحَّ.

وصلى الله على محمد صلاة طيبة زاكية مباركة ، والحمد لله ربّ العالمين .

## فهرس الحديث والآثار

الحديث	الصفحة
إن من الشعر حكمة	٣٩
امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار	10
أوتيت القرآن ومثله معه	۰۷
جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما	
خبر ضماد مع رسول الله ﷺ	7167
خرجت مع عمران بن حصین	٩,
ردفت رسول الله ﷺ	Å9 ·····
كان أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون	٩
كنت أجالس أصحاب رسول الله ﷺ	٩,
لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين	٩,
ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها	١٥
ما من نبى إلا أوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر	٦,
إن الحمد لله نحمده ونستعينه	γ,
يا أم عطية إذا خفضت فأشمى	٧,
هل معك من شعر أُمَيَّة ابن أبي الصلت شيئًا	۸۹ ۰۰۰۰۰۰۰۰

\* \* \*

## فهرس الشعر

الصفحة	الشاعر	البحر	القافية
۲۸	النابغة	الطويل	جنومح
٧	الحطيئة	الطويل	_ لذيذِ
VA		البسيط	مفسدِ
177 . 1	زهير	الوافر	الجواز
11	امرؤ القيس	منسرح	غدروا
		مضرس	عورها
1.1	تمیم بن أبی بن مقبل	الطويل	وأشعرا
٦.	ذو الرمة	الوافر	كبارًا
9 9	المسيب بن عَلَس	الطويل	جيفرِ
١	حمید بن ثور	الطويل	وناصر
٩٨	المسيب بن عَلَس	الكامل	القعقاع
1	الأعشى	الطويل	معلقُ
	:	الطويل	دخيلَ
٧٨	أمية بن أبي الصلت	البسيط	أحوالا
1.1	مزرد بن ضرار	الطويل	ونابلُ
*1	امرؤ القيس بن عابس	الكامل	والتقبيلي
70	ذو الرمة	الوافر	اللثام
177 ( 1 . 1		الوافر	المثلينا
٣٦	مضرس	الطويل	عورها
٧٥	***************************************	الطويل	بأعثه
٨٢		البسيط	المتلمس
	·		

# فهرس الكتب

رقم الصفحة	اسم الكتاب	
٧٥	أخبار عبيد بن شرِيَّة الجرهمي	
٩٠,	الأدب المفرد	
97471	أشراف العرب وساداتها وفرسانها وأيامها	
٤٥	الأغانى	
<b>**</b> ***	الأمالي للقالي	
٧٥	الأمثال	
٧١	أيام العرب	
٦٣	الإيقاع والنغم	
1 Y	البخلاء	
17	البرصان والعرجان	
۱۷،۱٦	البيان والتبيين	
٧١.	بيوتات العرب	
17	تاريخ الطبرى	
10	تاریخ ابن عساکر	
۷۸ ، ۷۰	التيجان (الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم)	
11 , 17 , , 7	الحيوان	
٨	رسالة في الطريق إلى ثقافتنا	
V•	سنن أبي داود	
٧٥	سيرة ابن إسحق	
	•	

	١٢٨
رقم الصفحة	اسم الكتاب
10	صحيح البخارى
٨٩	صحيح مسلم
78	طبقات الأدباء
77	طبقات الشافعية
44	طبقات الصوفية
77	طبقات الأطباء
۲۳	طبقات الأمم
71 , 17 , 77 ,	طبقات فحول الشعراء
. ۲۷ . ۲٤ . ۲۳	
( V Y ( 00 ( £0	
٧٣	
74	طبقات الفقهاء
۹.	الطبقات الكبير لابن سعد
44	طبقات اللغويين والنحاة
٦٣	العين للخليل بن أحمد
YI	فرسان الشعراء
<b>Y7</b>	فهرس ابن خير الإشبيلي
1	الفهرست
<b>\••</b>	كتاب المبتدأ
٥٢	الكتاب لسيبويه
١٠.	and I can
٤٧	مراتب النحويين

۷٥

### اسم الكتاب

المعجم الكبير للطبراني الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم

# فهسرس الموضوعسات

الصفحة	الموضوع	
٤ - ٣	مقدمة	
9 - 0	الدراسة الأدبية والمنهج	,
11 - 1.	قضايا الشعر الجاهلي	
17 11	عمر الشعر الجاهلي، ورأى الجاحظ فيه	
78 - 17	محمد بن سلّام وكتابه الطبقات	
79 - 75	رسالة الطبقات وسياقاتها	·
20 - 79	الوجوه الخمسة الملثمة في رسالته	
٤٦ - ٤٥	ترجمة محمد بن سلّام	
<b>٤</b> ٨ - ٤٦	أسانيد الطبقات وقيمتها	
٤٩ - ٤٨	تاريخ تأليف ابن سلام كتبه	
P3 - Y0	أثر تأخر سنه على كتاب الطبقات	
٥٧ - ٥٣	الخلل الظاهر في رسالته نتيجة لكتابتها مرتين	
09 - 04	عصر ابن سلام	
٦٣ ٥٩	التذوق أساس الحضارة وأمثلته	
	الخليل بن أحمد	
77 - 74	(صورة للعصر الذي نشأ فيه ابن سلام)	
	en e	

	•
الصفحة	الموضوع
77 - 78	عَوْد إلى محمد بن سلام والداعي إلى تأليف كتابه
٧٠ - ٦٨	ترجمة يحيى بن معين
YY - Y.	لقاء ابن سلام ویحیی بن معین
V0 - VY	تفكك فقرات رسالة ابن سلام وتعليل ذلك
V9 - V0	الدين عناهم ابن سلام بقوله (القوم)
9 79	بقية الكشف عن الوجوه الملثمة
9 8 - 9.	طرق تلقى الشعر
1.4 - 90	تذوق الكلام وكيف كان
178 - 1.8	القرآن ونزوله وصلته بالتذوق الشعرى
170	فهرس الحديث والآثار
١٢٦	فهرس الشعر
179 - 177	فهرس الكتب
181 - 18.	فهرس الموضوعات

,